



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الكتاب والسنة

التناسق الموضوعي في سورة الزخرف

(بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن)

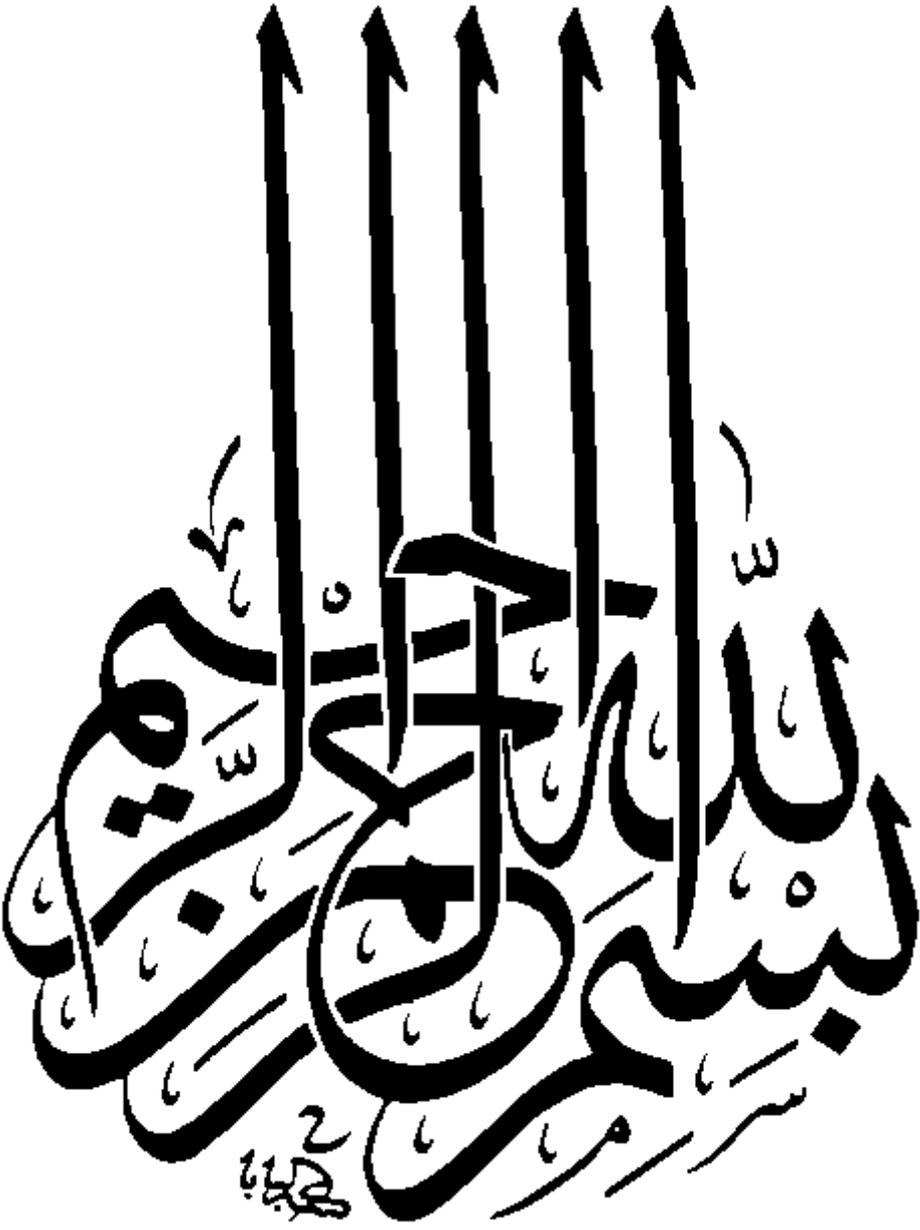
الطالبة : ولاء أحمد عبد الله نور الهدى

الرقم الجامعي (٤٢٩٨٠٠٨٦)

إشراف الدكتور :

محمد عبد الفتاح عبد الرازق سلام

١٤٣٤هـ - ١٤٣٥هـ



ملخص الرسالة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد، فهذه رسالة ماجستير في التفسير بعنوان:

(التناسق الموضوعي في سورة الزخرف)

وتهدف الرسالة إلى إظهار التناسق بين موضوعات سورة الزخرف وترابط آياتها ووحدة أهدافها، مما يُظهر بلاغة القرآن وإعجازه .

ويتكون البحث من مقدمة وبابين وخاتمة وفهارس:

الباب الأول: (التناسق الموضوعي: مقدمات تعريفية) ويشمل التمهيد وثلاثة فصول: اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها، مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ووجه اختصاصها بما اختصت به، أسباب نزولها ومقاصدها وأهدافها.

الباب الثاني: (التناسق الموضوعي: دراسة تطبيقية) ويشمل ثلاثة فصول: مناسبات السورة، موضوعات السورة وتناسقها، تفسير آياتها في ضوء تناسقها الموضوعي.

ومن أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث: الوقوف على التناسق والانسجام والإعجاز في آيات سورة الزخرف وترابط موضوعاتها وصلتها بالسورة التي قبلها والتي بعدها واتساقها في عقد الحواميم، وبيان الحكم والأسرار في تسميتها وفي سوق القصص فيها، وإثبات أن دراسة تناسق موضوعاتها له أثره في تفسيرها وفهم معانيها.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

المشرف على البحث :

الباحثة :

د.محمد عبد الفتاح عبد الرازق سلام

ولاء بنت أحمد عبد الله نور الهدى

DISSERTATION SUMMARY

Praise be to Allah alone, and peace and blessings be upon the prophet who no Prophet after him, and his companions and followers and follow them in the truth and after,

this Dissertation titled Master of the explanation :

(Objective Correlation In Surah AL-Zukhruf)

The aim of the Dissertation is Study Relationship Between the topics of Surah AL-Zukhruf .

The Dissertation consists of an introduction and two chapters and a conclusion and indexes .

first Chapter : Introductions.

second Chapter : applied Study.

Praise be to Allah Firstly and lastly.

Supervisor :

Dr.Mohammad Abdulfattah Salam

Researcher :

Walaa Ahmad Noor Alhuda

المقدمة

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً، الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، الحمد لله الذي أنزل التوراة والإنجيل وآتى داوود زبوراً، وأنزل الفرقان، فجعله محكم التنسيق معجز البيان، كامل الإتقان، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، الحمد لله القائل في كتابه: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨] .

والصلاة والسلام على من أرسله مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله الأطهار، وصحابته البررة الأخيار، وتابعيهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار .
 أما بعد: فإن كتاب الله تعالى هو أولى ما توجهت إليه الهمم، وبُذلت له الجهود، وشُغلت به الأوقات، وأفنيت فيه الأعمار، وإن علم التفسير لتعلقه بكلام الله تعالى هو أشرف العلوم وأرفعها قدراً، والاشتغال به شرف عظيم وأجر كبير، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .
 وبتفسير كلام الله عز وجل والتدبر في معانيه تنجلي أسرار هذا الكتاب المعجز وتضيء الكون أنواره، ويظهر دقة نظمه وارتباط أجزائه وتماسك بنيانه وتناسق ألوانه .

فكتاب الله تعالى وحدة متماسكة متألفة على حين أنه كثرة متنوعة مختلفة^(١)، وكل سورة من سوره العظيمة تتناسق موضوعاتها تناسقاً بديعاً ما أمتع أن نمخر عبايه ونخلق في سمائه، و لذلك قرر قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى مشروعاً لدراسة التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم، وقد وقع اختياري على دراسة (التناسق الموضوعي في سورة الزخرف)، أسأل الله

^(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني (٢/٢٤٨) .

تعالى أن يلهمني الصواب والرشاد، ويجعلني من أهل التوفيق والسداد، ومن الشاكرين له حق شكره.

أهمية الموضوع :

١ - أن الله سبحانه وتعالى أمر بالتدبر في كتابه وإعمال العقل وإمعان النظر، فقال:

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

٢ - أهمية دراسة التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم لمعرفة وجه هام من وجوه إعجازه .

٣ - الاستعانة على فهم القرآن الكريم بتلك النظرة الشاملة التي تعين على فهم المعنى من خلال معرفة سياق الآيات ومقاصد السور وأهدافها وصلتها بالسياق القرآني .

أسباب اختيار الموضوع:

١/ قلة الدراسات في هذا المجال، حيث إن الكتابة في التناسق الموضوعي مجال لا يشبع بحثاً وليس له حد يقف عنده، لأن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي أسراره وكنوزه، وكل من يعيش مع كتاب الله متأملاً ستفتح له آفاق جديدة .

قال فخر الدين الرازي^(٢) : "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط " ^(٣) .

^(٢) العلامة الكبير فخر الدين محمد بن عمر القرشي الطبرستاني الأصولي المفسر، كان من تلامذة محيي السنة البغوي، انتشرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته، وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة تلميذ، أشهر مصنفاته التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، ت ٦٠٦هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٣٦١٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي (ص ٢١٣، ٢١٤) .

^(٣) مفاتيح الغيب (١٠/١٤٥) .

وقال الزركشي^(٤) : "وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته " (٥) .

٢/ تعلق هذا الموضوع بدراستي في تخصص التفسير وعلوم القرآن تعلقاً مباشراً .

٣/ أهمية سورة الزخرف بمناقشتها لموضوعات في أصول الدين والإيمان .

أهداف البحث:

إبراز الترابط والتناسق بين موضوعات سورة الزخرف وبين آياتها، وبيان أن موضوعات السورة تخدم أغراضها وأهدافها، ليتجلى بمعرفة ذلك إعجاز نظم القرآن الكريم المنزل من لدن حكيم خبير .

الدراسات السابقة :

تطرق بعض المؤلفات إلى جوانب كثيرة من جوانب التناسق الموضوعي في سورة الزخرف، من ذكر المناسبات بين الآيات، وبين السورة وسابقتها ولاحقتها، وبين فاتحتها وخاتمتها، وغير ذلك من المناسبات التي يتوصل بها إلى معرفة التناسق الموضوعي في السورة، ومن أهم تلك المؤلفات:

١ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) : احتوى هذا التفسير الكبير

على إشارات ولحات قيمة في التناسق، فبين في أكثر المواضع في سورة الزخرف وجه

الاتصال بين مقاطع السورة وذكر بعض الحكم في ترتيب الآيات .

(٤) بدر الدين الزركشي محمد بن بهادر بن عبدالله التركي الأصل، عني بالفقه والأصول والحديث، له مصنفات من أنفسها كتاب البرهان في علوم القرآن. ت ٧٩٤ هـ بالقاهرة. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٣/٣٩٧).

(٥) البرهان في علوم القرآن (ص ٣٦) .

- ٢- البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) : ربط المؤلف في هذا الكتاب كل سورة بالسورة التي قبلها دون تعرض للتناسق بين موضوعاتها .
- ٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ): تفسير يهتم بذكر المناسبات بين الآيات والسور فيربط الآية بسابقتها ويربط السورة بالسورة التي قبلها دون التعرض لوحدة موضوعاتها، وهو من أهم ما ألف في هذا المجال .
- ٤- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي: تحدث فيه البقاعي باختصار عن مقصود السورة وفضلها ووجه تسميتها بالزخرف .
- ٥- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ): ذكر المناسبة بين أول سورة الزخرف وآخرها .
- ٦- في ظلال القرآن لسيد قطب (ت ١٣٨٦هـ): يقدم الكتاب في أول تفسير سورة الزخرف عرضاً شاملاً لموضوعات السورة وأحداثها ويذكر وجه تخصيص قصة موسى عليه السلام وفرعون بالذكر في هذه السورة، ثم هو يربط في التفسير كثيراً بين الآيات بأسلوب يظهر لحمة موضوعات السورة وانسجامها، ويبين انتظامها وتناسقها في العرض والترتيب .
- ٧- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) : بين يدي سورة الزخرف أجمل ابن عاشور رحمه الله ذكر أغراض السورة واهتم في تفسيرها بالمناسبات بين الآيات، حتى صار تفسيره من أهم المراجع للباحث في التناسق الموضوعي، إلا أنه لم يتناول السورة بنظرة شاملة تبين وحدتها الموضوعية .
- ٨- الأساس في التفسير لسعيد حوى (ت ١٤٠٩هـ): وهو كتاب غني بالفوائد في التناسق الموضوعي فقد اهتم بالربط بين الآيات وبيان وحدة مضمون السورة،

وابتداً حديثه عن سورة الزخرف بقوله: (كلمة في سورة الزخرف ومحورها)، ورغم وجود شيء من التكلف في ربطه السورة بآية سورة البقرة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] إلا أنه أظهر تناسق سورة الزخرف والتلاؤم بين مقاطعها والإعجاز في سياقها تحت عنوان (كلمة في السياق) وهي نظرة إلى الآيات من حيث تناسقها يأتي بها بعد تفسير المقطع تفسيراً إجمالياً، ويبين فيها الصلة بين الموضوعات، وفي آخر السورة تحت عنوان (كلمة في سورة الزخرف) ربط المؤلف بين أجزاء السورة وبين تناسق نظامها وتماسك موضوعاتها .

٩- آل حم دراسة في أسرار البيان، للشيخ الدكتور محمد محمد أبو موسى: تحدث فيه باستفاضة عن التناسق وأسرار مجيء الكلمة في موضعها من الآية ومجيء الآية إثر الآية، مع الاهتمام بربط السورة بما قبلها وما بعدها، إلا أنه لم يهدف إلى إيضاح مقاصد السورة وإبراز موضوعاتها وبيان اختصاص السورة بها وإنما أشار إلى ذلك عرضاً .

١٠- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف: د. مصطفى مسلم: تحدث الكتاب عن مناسبات سورة الزخرف فذكر من المناسبات: (المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها ، المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها، المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها) ، وابتداً في تفسير مقاطع السورة بذكر مناسبة الآيات لما قبلها بإيجاز ثم تفسيرها تفسيراً إجمالياً ثم ذكر هداية الآيات، وعدد في آخر تفسير السورة أهم الدروس المستفادة من سورة الزخرف . فالكتاب لم يتعمق في الحديث عن التناسق ولم يتطرق إلى وحدة الموضوعات .

١١- المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، دراسة تطبيقية لسورة الشورى والزخرف

والدخان والجائية والأحقاف، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية - غزة، إعداد الطالب: محمد كامل سالم ديب، إشراف الأستاذ الدكتور: زكريا إبراهيم الزميلي: تحدث فيها الطالب بين يدي سورة الزخرف عن تسمية السورة ونزولها وعدد آياتها ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ومحورها ومقاصدها، ثم عن العلاقة بين فواصل السورة وآياتها، ولم يتحدث عن موضوعات السورة وتناسقها .

وهذه الكتب مليئة باستنباط بدائع التناسق وأسرار النظم القرآني وإظهار جماله وإعجازه، وقد أفدت من هذه الكتب القيمة في كتابة بحثي، إلا أن هذه المؤلفات كان بعضها شديد الإيجاز في الحديث عن التناسق وبعضها اهتم بالتناسق بين الآيات دون تناول السورة بنظرة شاملة لاستخراج مقاصدها وإبراز وحدتها الموضوعية وقضيتها الكلية، فكان التناسق الموضوعي في سورة الزخرف لا زال بحاجة إلى مزيد بحث وتأمل .

وهناك دراسات خصت سورة الزخرف إلا أنها تناولت السورة من جوانب أخرى لا علاقة لها بالتناسق الموضوعي :

- ١ - **المباحث العقديّة في سورة الزخرف**، رسالة ماجستير في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ١٤٣٣ هـ، الجامعة الإسلامية - غزة، إعداد الطالب فادي محمد توفيق القيشاوي، إشراف الأستاذ الدكتور سعد عبد الله حسان عاشور: تحدث الباحث في رسالته عن المسائل العقديّة في ضوء سورة الزخرف.
- ٢ - **المضامين التربوية المستنبطة من سورة الزخرف**، رسالة ماجستير في التربية، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، إعداد الطالب أحمد حكمت بشير ياسين، إشراف الدكتور محمد يوسف عفيفي .

٣- أصول الإيمان في سورة الزخرف، جمع ودراسة. جامعة الملك عبد العزيز-جدة، إعداد الطالبة مريم موسى عثمان عقيلي، إشراف د. زينب محمد رجاء الله الحربي .

ولم أفف على رسالة علمية تناولت التناسق الموضوعي في سورة الزخرف بشكل خاص ومستفيض، ونظرة شاملة، وبيان واف لأهدافها وأبرز موضوعاتها ووجه اختصاص السورة بها وبيان المناسبات بين السورة وما قبلها وما بعدها وبين اسمها وموضوعاتها، وبين محورها وموضوعاتها ، فكان هذا هو موضوع عملي في هذه الرسالة .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وبابين وخاتمة وفهارس .

المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهداف البحث والدراسات السابقة وخطة البحث ومنهجه والشكر .

الباب الأول / التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي .

الفصل الأول : اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: ما ورد لسورة الزخرف من أسماء .

المبحث الثاني: ما ورد في فضل سورة الزخرف أو بعض آياتها .

المبحث الثالث: عدد آيات سورة الزخرف واختلاف العلماء في ذلك .

المبحث الرابع: تاريخ نزول سورة الزخرف .

الفصل الثاني: مكى السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: المكى والمدني في سورة الزخرف .

المبحث الثاني: مناسبة سورة الزخرف لما قبلها وما بعدها .

المبحث الثالث: وجه اختصاص سورة الزخرف بما اختصت به .

الفصل الثالث: أسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في سورة الزخرف .

المبحث الثاني: مقاصد سورة الزخرف وأهدافها.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي: دراسة تطبيقية

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول: مناسبات السورة الكريمة . وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: مناسبة اسم سورة الزخرف لموضوعاتها.

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة سورة الزخرف لموضوعاتها.

المبحث الثالث: مناسبة فاتحة سورة الزخرف لخاتمها .

الفصل الثاني: موضوعات سورة الزخرف وتناسقها، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: افتتاح السورة بتشريف القرآن الكريم . من الآية (١) إلى (١٤) .

المبحث الثاني: جدال المشركين ورد شبهاتهم . من الآية (١٥) إلى (٣٥) .

المبحث الثالث: عقوبة العاشين عن ذكر الرحمن . من الآية (٣٦) إلى (٤٥) .

المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام . من الآية (٤٦) إلى (٥٦) .

المبحث الخامس: قصة عيسى عليه السلام . من الآية (٥٧) إلى (٦٦) .

المبحث السادس: أحوال الآخرة . من الآية (٦٧) إلى (٨٠) .

المبحث السابع: ختام السورة بتقرير التوحيد . من الآية (٨١) إلى (٨٩) .

الفصل الثالث: تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي .

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث .

الفهارس: فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث والآثار.

فهرس الأعلام.

فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

اتبعت في البحث المنهج التالي:

- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني .
- عزو الآيات القرآنية إلى سورها في نص الرسالة تخفيفاً للحواشي .

- تخرّيج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، والاكتفاء فيما كان في البخاري ومسلم أو أحدهما عن بقية المصادر .
- التزام الترتيب الزمني للوفيات في ترتيب المصادر في الحواشي .
- توثيق النصوص من مصادرها بالنص الأصلي ووضع علامة التنصيص .
- الترجمة للأعلام عند أول موضع يذكر فيه العلم، عدا من استفاضت شهرتهم من الصحابة وغيرهم، مع الإحالة إلى الترجمة .
- التعريف بالمفردات التي تحتاج إلى تعريف .
- تقسيم السورة في الفصل الثاني من قسم الدراسة التطبيقية إلى سبعة مباحث وفق الموضوعات ثم الربط بين الموضوعات والآيات .
- تفسير آيات السورة في الفصل الأخير تفسيراً إجمالياً مع إظهار التناسق وبيان ارتباط الآيات والموضوعات بمحاور السورة ومقاصدها وإظهار وحدتها الكلية ما أمكن.
- الرجوع إلى أمهات كتب التفسير والاستنارة بالكتب التي اهتمت بإظهار التناسق مع التأمل والاستنباط دون تكلف، والابتعاد عن الإيجاز المخل والتطويل الممل .
- تذييل الرسالة بفهارس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأعلام والمفردات والمصادر والمراجع التي تم النقل أو الاستفادة منها، ثم فهرس الموضوعات، والاعتماد في الفهارس على الترتيب الهجائي .

شكر وتقدير:

ثم لا يسعني إلا أن أتوجه بخالص الحمد والشكر لله العليّ القدير الموفق والهادي إلى سواء السبيل، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما شاء من شيء بعد، له الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الحمد حتى يرضى وله الحمد بعد الرضا .

ثم الشكر لوالدي الكريمين حفظهما الله وأطال عمريهما في طاعته وألبسهما من حلل الفردوس، وجزاهما عني خير ما يجزي والدأ عن ولده، وألبسهما تاجاً من نور، وكساهما حلتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان بم كسينا هذا، فيقال: بأخذ ولدكما القرآن^(٦).

ثم الشكر لزوجي الغالي الذي لم يينخل عليّ بجهدده ووقته ولم يتأخر عني دعمه وتوجيهه، وكان خير عون لي في هذا البحث فجزاه الله عني خيراً كثيراً .

ولمشرني الفاضل الدكتور محمد عبد الفتاح عبد الرازق سلام الذي تفضل بالإشراف على رسالتي وقراءتها ومراجعتها، بارك الله في علمه وجزاه خير الجزاء .

ولأستاذتي الفاضلة الدكتورة سلمى داود إبراهيم بن داود التي استقبلتني بصدر رحب، وساندتني من أول يوم سجلت فيه الرسالة إلى آخر يوم، وأكرمتني بخلق عظيم وعلم نافع

(٦) قال صلى الله عليه وسلم: " تعلموا سورة البقرة إلى أن قال: وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة ... ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن " . أخرجده الإمام أحمد في مسنده (٢٢٩٥٠) (٤١/٣٨)، والدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن باب في فضل سورة البقرة وآل عمران (٣٤٣٤) (٢١٣٥/٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٥٤/٤) وقال هذا حديث حسن غريب. وينظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني (١٦٩/٢).

وإخلاص صادق، جزاها الله خيراً وبارك في علمها وخلقها .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الشيخين الأستاذ الدكتور: أمين محمد عطية باشا، والأستاذ

الدكتور: طه عابدين طه حمد، على قراءتهما رسالتي وتوجيهها وإثرائها وتصويب أخطائها .

وإلى أساتذتي الفضلاء وجدتي الغالية، وإخوتي وأخواتي وصديقاتي وكل من له علي أدنى

معروف جزاكم الله خير الجزاء .

كما أشكر جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين وقسم الكتاب والسنة زادها الله

رفعة بخدمتها للعلم وأهله .

أسأل الله العظيم أن يرفعنا ويرفعنا بالقرآن الكريم، ويجعله لنا شافعاً وشاهداً، وإلى الجنان

قائداً، ويسكننا به الظلل، ويلبسنا به الحلل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الأول

التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية

التمهيد

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي

أولاً: التناسق :

مأخوذ من مادة نَسَق، وهي تدل على تتابع في الشيء، والنسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحدة، والتنسيق: التنظيم، و(ثَغْرٌ نَسَقٌ) أي أسنانه متساوية، و (خرز نَسَقٌ) أي منظم، والكلام النَسَقُ : ما جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض، والنحويون يسمون حروف العطف حروف النسق لأن الشيء إذا عطف عليه شيئاً بعده جرى مجرى واحداً^(١).

ثانياً: الموضوع :

لغة: من الوضع وهو ضد الرفع، وضعه يضعه وضعاً وموضوعاً^(٢).
والموضوع اصطلاحاً: هو المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه^(٣).

ثالثاً: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية :

من خلال التعريف اللغوي يظهر أن التناسق الموضوعي في السورة:

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٤٢٠/٥)، لسان العرب لابن منظور (٦ / ٤٤١٢)، القاموس المحيط للفيروز أبادي (ص ٩٢٥) .
(٢) لسان العرب (٤٨٥٧/٦) .
(٣) المعجم الوسيط (ص ١٠٤٠) .

هو ارتباط موضوعات السورة بعضها ببعض وتآلفها في نظام واحد وتتابعها على قضية أو عدة قضايا تشترك في أهدافها ومقاصدها وتصب في مجرى واحد ^(١).

فالتناسق الموضوعي يوصلنا إلى أن للسورة وحدة كلية وأنها بناء واحد و " سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات ونسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات " ^(٢). وهو يجلي أغراض السورة ويظهر إعجاز هذا الكتاب وحكمة الله سبحانه .

قال الشيخ الزرقاني ^(٣) في حديثه عن جودة سبك القرآن :

" فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من الترابط والتشابك ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعاقبة الآيات " ^(٤) .

وقد أثبت الفراهي ^(٥) في كتابه نظام القرآن أن السورة لها نظام واحد ومنهج خاص بها، واستدل

^(١) وينظر: البرهان للزركشي (ص ٣٧)، التفسير الموضوعي د.عباس عوض الله (ص ١٩)، التناسق

الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد عمر بازمول (ص ١١) .

^(٢) النبأ العظيم لمحمد دراز (ص ١٥٧) .

^(٣) محمد بن عبد العظيم الزرقاني من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين وعمل بها مدرساً لعلوم

القرآن والحديث، أشهر كتبه (مناهل العرفان في علوم القرآن) ت١٣٦٧هـ. الأعلام (٦/٢١٠) .

^(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٢٤٨) .

^(٥) عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان الأنصاري الفراهي، من كبار العلماء، له خبرة تامة بالعلوم الأدبية،

أسس قرياً من قريته مدرسة دينية سماها (مدرسة الإصلاح) لتحسين طريقة تعليم العربية والاختصاص في

علوم القرآن، وله بعض أجزاء من تفسيره المسمى (نظام الفرقان وتأويل القرآن بالقرآن) الذي بناه على

بيان تناسق نظم القرآن وربط الآيات بعضها ببعض، توفي عام ١٣٤٩هـ . الإعلام بمن في تاريخ الهند من

الأعلام للشريف الحسيني (٢٢٠) (١٢٦٧/٨).

بالتفاوت بين السور في الطول والقصر، وأنه لو لم يكن أمر واحد ومنهج خاص يجمع السورة لكان القرآن كله سورة واحدة، كما أن الله تعالى جعل كل جملة من الآيات في سورة وسمها سورة كأنه ضرب بسور حول مدينة، فكيف يجمع مدناً في سورة والتشابه في المعنى لا يجمعها (١).

فالسورة القرآنية مربوطة إلى بعضها برباط واحد معجزة في تماسك بنيانها، فلا نلمس بين موضوعاتها تشتتاً ولا تباعداً مهما تعددت قضاياها، بل هي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره ويتراعى بجملته إلى غرض واحد (٢)، " كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر خارج من المعاني أنفسها وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً " (٣).

قال صاحب النبأ العظيم (٤):

" اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن ... إلى أن قال : وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبادئها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى " (٥).

(١) ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ص ٤٦) .

(٢) ينظر النبأ العظيم (ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٩)، مناهل العرفان (١ / ٥٣)، الموافقات للشاطبي في الكلام عن (الأدلة بالتفصيل)، المسألة الثالثة عشرة : (رد أول الكلام على آخره ورد آخره على أوله) (٣ / ٤١٢ - ٤٢٠) .

(٣) النبأ العظيم (ص ١٥٥) .

(٤) محمد بن عبد الله دراز، فقيه متأدب مصري أزهرى كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، له كتب منها

(الدين) و(النبأ العظيم) ، ت ١٣٧٧ هـ . الأعلام للزركلي (٦/ ٢٤٦) .

(٥) (ص ١٥٤) .

وَيَصُور لَنَا التَّنَاسُقَ المَوْضُوعِي فِي السُّورَةِ القُرْآنِيَةِ قَائِلًا^(١):

" لِمَاذَا نَقُولُ إِنَّ المَعَانِي تَنْتَسِقُ فِي السُّورَةِ كَمَا تَنْتَسِقُ الحِجْرَاتُ فِي البِنْيَانِ ؟ لا . بَلْ إِنَّهَا لَتَلْتَحِمُ فِيهَا كَمَا تَلْتَحِمُ الأَعْضَاءُ فِي جِسمِ الإِنْسَانِ ، فَبَيْنَ كُلِّ قِطْعَةٍ وَجَارَتِهَا رِبَاطٌ مَوْضُوعِي مِنْ أَنْفُسِهِمَا ، كَمَا يَلْتَقِي العِظْمَانُ عِنْدَ المِفْصَلِ ، وَمِنْ فَوْقِهِمَا تَمْتَدُّ شَبْكَةٌ مِنَ الوَشَائِجِ^(٢) تَحِيطُ بِمَا عَنِ كَتَبِ ، كَمَا يَشْتَبِكُ العِضْوَانُ بِالشَّرَائِينِ والعُرُوقِ والأَعْصَابِ ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كَلَهُ يَسْرِي فِي جَمَلَةِ السُّورَةِ اتِّجَاهَ مَعِينِ ، وَتُؤَدِّي بِمَجْمُوعِهَا غَرَضًا خَاصًّا ، كَمَا يَأْخُذُ الجِسمُ قِوَامًا وَاحِدًا ، وَيَتَعَاوَنُ بِجَمَلَتِهِ عَلَى أَدَاءِ غَرَضٍ وَاحِدٍ ، مَعَ اخْتِلَافِ وَظَائِفِهِ العِضْوِيَّةِ " .

وَيَقْدِمُ لَنَا الإِمَامُ البِقَاعِي^(٣) صُورَةَ بَدِيعَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ^(٤) :

" تَكُونُ السُّورَةُ كَالشَّجَرَةِ النُّضِيرَةِ العَالِيَةِ ، وَالدَّوْحَةِ البَهِيحَةِ الأَنِيقَةِ الخَالِيَةِ ، المَزِينَةِ بِأَنْوَاعِ الزِينَةِ المَنْظُومَةِ بَعْدَ أُنَيْقِ الوَرَقِ بِأَفْنَانِ الدَّرِّ وَأَفْنَانِهَا مَنَعُطْفَةٌ إِلَى تِلْكَ المَقَاطِعِ كَالدَّوَائِرِ ، وَكُلُّ دَائِرَةٍ مِنْهَا لَهَا شَعْبَةٌ مُتَصِلَةٌ بِمَا قَبْلُهَا ، وَشَعْبَةٌ مُلْتَحِمَةٌ بِمَا بَعْدُهَا ، وَآخِرُ السُّورَةِ قَدْ وَاصَلَ أَوَّلُهَا ، كَمَا لِاحْمِ انْتِهَائُهَا مَا بَعْدُهَا ، وَعَانَقَ ابْتِدَائُهَا مَا قَبْلُهَا ، فَصَارَتْ كُلُّ سُورَةٍ دَائِرَةً كَبِيرًا ، مُشْتَمِلَةً عَلَى دَوَائِرِ الآيَاتِ الغَرِّ ، البَدِيعَةِ النِّظْمِ العَجِيبَةِ الضَّمِّ بِلِينِ تَعَاظِفِ أَفْنَانِهَا ، وَحَسَنِ تَوَاصُلِ ثَمَارِهَا وَأَعْصَانِهَا " .

^(١) النبأ العظيم (ص ١٥٥) .

^(٢) الوشائج من وشج : وشجت العروق والأغصان : اشتبكت ، وكل شيء يشتبك فهو واشج : تداخل وتشابك والتف . لسان العرب لابن منظور (٤٨٤٠/٦) .

^(٣) برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي يكنى بأبي الحسن ، له كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) قال الإمام السيوطي : هو مؤلف لم يسبقه إليه أحد جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول . ت ٨٨٥ هـ . طبقات المفسرين للأدنه وي (ص ٣٤٧) .

^(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (١ / ١٤٩) .

فسبحان منزل هذا الكتاب المعجز القائل في وصفه: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] .

الفصل الأول

اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها، وفيه أربعة
مباحث :

المبحث الأول : ما ورد لسورة الزخرف من أسماء.

المبحث الثاني : ما ورد في فضل سورة الزخرف.

المبحث الثالث : عدد آيات سورة الزخرف واختلاف العلماء في ذلك.

المبحث الرابع : تاريخ نزول سورة الزخرف .

المبحث الأول

ما ورد لسورة الزخرف من أسماء

معرفة أسماء سور القرآن الكريم لها أهمية كبيرة في النظرة الشاملة للسورة والتوصل إلى مقاصدها وأهدافها^(١)، و"اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه"^(٢).

وأسماء السور على أرجح أقوال العلماء توقيفية لا اجتهاد فيها، وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري^(٣) في قوله: " لسور القرآن أسماء سماهن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٤)، والإمام السيوطي^(٥) رحمه الله حيث يقول: " وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار "^(٦).

(١) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (١٤٩/١) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١٨/١ ، ١٩) .

(٣) الإمام العلم الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، عالم بالتفسير والتاريخ والقراءات وتاريخ الرجال وله كتاب التفسير الذي لم يصنف مثله، (جامع البيان)، قال عنه ابن خزيمة: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير. ت ٣١٠هـ. تذكرة الحفاظ للذهبي (٧١٠/٢) .

(٤) جامع البيان (٩٦/١) .

(٥) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي جلال الدين العلامة المشهور في الآفاق إمام حافظ مؤرخ أديب ، له نحو ٦٠٠ مصنف في مختلف العلوم منها تفسير (الدر المنثور) و (الإتيقان في علوم القرآن) و(الجامع الصغير) في الحديث. ت ٩١١هـ. الأعلام (٣٠١/٣) ، طبقات المفسرين للأدنه وي (ص ٣٦٥).

(٦) الإتيقان في علوم القرآن (ص ١٤٠) .

والظاهر ابن عاشور^(١) في قوله : " وأما أسماء السور فقد جعلت لها من عهد نزول الوحي " (٢).

وقال الزركشي^(٣) في البرهان :

" ينبغي البحث عن تعداد الأسماء هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات، فإن كان الثاني، فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد " (٤).

وقد ثبتت بعض أسماء السور عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح مسلم^(٥) عنه أنه قال: "يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران" (٦). وثبت بعضها عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن بعدهم .

قال ابن عاشور : "والظاهر أن الصحابة سموها بما حفظوه عن النبي صلى الله عليه وسلم أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كان الناس يعرفونها بها ... وقد اشتهرت تسمية بعض السور في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وسمعتها وأقرها وذلك يكفي في تصحيح التسمية " (٧).

(١) محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس له مصنفات مطبوعة من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، ت ١٣٩٣ هـ. الأعلام (٦/١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/٩٠) .

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

(٤) (ص ١٩٠) .

(٥) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين الحافظ، صاحب الجامع المسند الصحيح ثاني كتابين هما أصح الكتب المصنفة . قال عنه ابن حجر: "حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله"، ت ٢٦١ هـ . تهذيب التهذيب لابن حجر (٤/٦٧) .

(٦) صحيح مسلم عن النواس بن سمعان من كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. (٢٥٣) (١/٥٥٣) .

(٧) التحرير والتنوير (١/٩١) .

والسورة التي بين أيدينا سميت (سورة الزخرف) وسميت (سورة حم الزخرف) .

١- سورة الزخرف :

اشتهرت السورة بهذه التسمية في المصاحف وسميت بها في كتب التفسير وبذلك ترجم لها الترمذي^(١) في كتاب التفسير من جامعه، فقال : " باب : ومن سورة الزخرف " ^(٢) .

٢- سورة حم الزخرف :

بإضافة كلمة (حم) إلى الزخرف، وقد وردت بهذا الاسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم ... إلى أن قال: ثم حم الزخرف " ^(٣) .

ووردت به كذلك عن بعض التابعين^(٤)، وبهذا الاسم ترجم لها البخاري^(٥) في كتاب التفسير

(١) الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مصنف الجامع الذي قال عنه: " من كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم ". وكان يضرب به المثل في الحفظ، ت ٢٧٩ هـ . تذكرة الحفاظ للذهبي (٢ / ٦٣٣) .

(٢) سنن الترمذي (ص ٧٣٥) .

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (ص ٣٣ ، ٣٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٧ / ١٤٢ ، ١٤٣)، ولم أقف عليه عند غيرهما .

(٤) سماها مقاتل بهذا الاسم وابن شهاب الزهري في كتابه تنزيل القرآن، وغيرهما. وينظر: الإتيان للسيوطي (ص ٣٨ ، ٧٧) .

(٥) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري صاحب الجامع الصحيح أصح الكتب المصنفة، وكان يقول: " ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين " ت ٢٥٦ هـ .

تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (٣ / ٥٠٨) .

من صحيحه ^(١).

معنى الزخرف: جاءت كلمة الزخرف في الآية الخامسة والثلاثين من السورة في قوله تعالى :

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

قال المفسرون: الزخرف هنا هو الذهب أو الزينة ^(٢). وهو في اللغة الزينة وكمال حسن الشيء،

ثم سمي كل زينة زخرفاً، والمزخرف : المزين ^(٣) .

معاني الزخرف في القرآن الكريم:

لقد ورد لفظ الزخرف في ثلاثة مواضع أخرى من القرآن سوى موضع سورة الزخرف، وهي :

١- قوله تعالى : ﴿ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢].

٢- وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ [يونس : ٢٤].

٣- وقوله: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرِفٍ ﴾ [الإسراء : ٩٣].

قال ابن الجوزي ^(٤): " ذكر أهل التفسير أن الزخرف في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها الذهب

^(١) صحيح البخاري (ص ١٢١٥) .

^(٢) جامع البيان للطبري (٥٩٢/٢٠) ، الكشاف للزمخشري (٤٤٠/٥) ،

^(٣) لسان العرب لابن منظور (١٨٢١/٣) .

^(٤) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي، الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، كان بجرأ في

التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، له مصنفات كثيرة مثل (زاد

المسير) و (تذكرة الأريب) و (الوجوه والنظائر)، توفي في رمضان عام ٥٩٧ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي

(٢٨٤٨) (ص ٢١٩٢) .

ومنه قوله تعالى في بني اسرائيل: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُحْرَفٍ﴾ ومثله ﴿وَزُحْرَفًا﴾
 والثاني: الحسن. ومنه قوله تعالى في يونس ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُحْرَفَهَا وَأَزْيَنْتَ﴾ أي
 حسنها، والثالث: التزيين ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُحْرَفًا﴾
 الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿^(١) .

والمعنى الأولى والأرجح في المراد بالزحرف في هذه السورة هو الزينة، لأنه أشمل وأعم ويدخل فيه
 الذهب وكل ما يتعلق بالزينة .

وجه التسمية:

تبين مما سبق أن سورة الزحرف ليست مختصة بورود هذا الاسم فيها، إلا أن هذه السورة
 صورت حقارة الزحرف الدنيوي بأبلغ الصور، وذكرت عاقبة أخلاء الزحرف في قوله تعالى:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)، وعاقبة المغترين بالزحرف

في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦)،

ووصفت زحرف الجنة المعد للمتقين ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزحرف

: ٧١]، وهدمت المقاييس الزائفة و الزحارف الدنيوية التي يركن إليها المشركون ويفتخر بها

فرعون ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾ (٣١)، ﴿فَلَوْلَا

أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزحرف: ٥٣]، ورغبت فيما عند الله من الرحمة والنعيم لمن صبر

^(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (١/٣٣٥) .

عن بريق الزخرف ﴿ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ وقررت هذا المعنى في آياتها، وكان نبذ الزخرف الفاني أعظم مقاصدها

وأظهر موضوعاتها، فاختصت السورة بهذه التسمية دون غيرها .

قال المهامي^(١):

" سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها وغاية العداوة مع ربها بحيث لا

تليق بالأصالة إلا لأعدائه، وهذا من أعظم مقاصد القرآن " ^(٢) .

^(١) علي بن أحمد بن علي المهامي الهندي أبو الحسن المعروف بالمخدوم، باحث مفسر وله مصنفات عربية

نفيضة منها : (تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن) ت ٨٣٥ هـ . الأعلام

للزركلي (٢٥٧/٤) .

^(٢) تبصير الرحمن وتيسير المنان (٢٥١/٢) .

المبحث الثاني

ما ورد في فضل سورة الزخرف أو بعض آياتها

أولاً: فضل القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٩].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله يضع بها الكتاب أقواماً ويضع به آخرين " (١).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " (٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا حسد إلا على اثنتين رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٢٦٩) (٥٥٩/١).

(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٨) (ص ١٢٨٤).

وآناء النهار " (١) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لله أهلين من الناس " قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: " هم أهل القرآن أهل الله وخاصته " (٢) .

ثانياً: ما ورد في فضل الحواميم (٣):

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب اغتباط صاحب القرآن (٥٠٢٥) (ص ١٢٨٣)، صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٢٦٦) (٢٦٧) (٥٥٨/١)، (٥٥٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه في افتتاح الكتاب باب في فضل من تعلم القرآن وعلمه، (٢١٥) (ص ٥٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٢) (٨٥/٤) .

(٣) وأكثر الأحاديث ضعيفة في هذا الباب، منها ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " الحواميم روضة من رياض الجنة " ، أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن سمرة بن جندب رضي الله عنه (٢٨١٦) (١٦٠/٢) ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٢/٨) (٣٥٣٨) : ضعيف جداً.

وعنه صلى الله عليه وسلم: " الحواميم سبع ، وأبواب جهنم سبع تجيء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب فتقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني " . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة (٢٢٥٠) (١٠٥/٤) وقال : هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع . وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٠٥/١٣) .

وعنه صلى الله عليه وسلم : " اعملوا بالقرآن أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه، وإذا تشابه عليكم فردوه إلى الله وإلى أولي العلم من بعدي كما يخبرونكم، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أوتي النبيون من ربهم وليسعكم القرآن وما فيه من البيان؛ فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، ألا وإن لكل آية نوراً يوم القيامة وإني أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطواسين والحواميم من ألواح موسى وأعطيت فاتحة الكتاب من تحت العرش " أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٤٩) (١٠٥/٤) والحاكم في المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: عبید الله قال أحمد تركوا حديثه. المستدرک مع التلخیص (١/٥٦٨) .

سورة الزخرف هي واسطة عقد الحواميم السبع، وقد وردت أحاديث في فضلها كإحدى سور الحواميم، منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنكم تلقون عدوكم غداً فليكن شعاركم حم لا ينصرون ^(١) ".

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " الحواميم ديباج القرآن " ^(٢).

ثالثاً: ما ورد في فضل سورة الزخرف :

لم أقف على حديث في فضل السورة باسمها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣).

رابعاً: ما ورد في فضل قوله تعالى : ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ

وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ : ﴿١٣﴾

^(١) أخرجه أبو داوود في سننه من كتاب الجهاد باب في الرجل ينادي بالشعار (٢٥٩٧) (ص ٤٥٥) والترمذي في سننه من كتاب الجهاد باب ما جاء في الشعار (١٦٨٢) (ص ٣٩٣)، وابن سلام في فضائل القرآن (٤٨٩) (٢/٦٤)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (١٣٧/٢) . وينظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٠٩٧) (٧/٢٥٩) .

^(٢) أخرجه ابن سلام في فضائل القرآن (٤٩٠) (٢/٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٩١٣) (١٥/٥٥٧)، والحاكم في المستدرک من كتاب التفسير (٤٣٧/٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٤٣) (٤/١٠٠)، وإسناده إلى ابن مسعود صحيح كما ذكر الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٢/٨) (٣٥٣٧) .

^(٣) وأما الحديث الذي أورده بعض المفسرين : (من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) فهو موضوع قال فيه الشهاب الخفاجي : " حديث موضوع رائحة الوضع منه فائحة " . عناية القاضي وكفاية الراضي (٤٥٥/٧) .

ورد في فضل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبير ثلاثًا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ (١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من كتاب الحج باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢) (٩٧٨/٢).

المبحث الثالث

عدد آيات سورة الزخرف واختلاف العلماء في ذلك

علم عد الآي ومعرفة الفواصل:

هو علم جليل يبحث فيه عن أحوال آيات القرآن الكريم من حيث عدد آيات كل سورة، وابتداء كل آية وانتهائها^(١).

ومن أهم فوائد هذا العلم:

أنه يحتاج إليه لصحة الصلاة فإن من لا يستطيع قراءة الفاتحة يتعين عليه قراءة سبع آيات بدلاً منها، ولا سبيل لمعرفة سبع آيات بدون معرفة الفواصل، و يحتاج إليه لصحة خطبة الجمعة فقد اشترط بعض العلماء لصحة الخطبة قراءة آية تامة، ولما يترتب عليه من أحكام القراءات كمعرفة الإمامة والتقليل في رؤوس الآي، وغير ذلك من الفوائد^(٢).

وقد روي عن عدد من الصحابة والتابعين وأئمة القراءة أنهم كانوا يعدون الآي في الصلاة^(٣).

وعدد آيات سورة الزخرف تسع وثمانون آية، وعدها أهل الشام ثمانياً وثمانين^(٤).

^(١) ينظر القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي (ص ٩٠) .

^(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ص ١٨١)، القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي

(ص ٩٠، ٩١)، نفائس البيان في عد آي القرآن لعبد الفتاح القاضي (ص ٢٤-٢٥).

^(٣) ينظر: البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص ٤١-٤٩).

^(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٧/٢٥).

قال عبدالفتاح القاضي^(١) :

(ما بدؤه حرف التهجي الكوف عد)^(٢)

وقال:

(مهين الحجاز مع بصريهم)^(٣).

فقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ [الزخرف: ١] : عدت رأس آية في العدد الكوفي^(٤) وأسقطت عند باقي علماء العدد .

وقوله: ﴿أَمْرًا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢]: عدت (مهين) رأس آية في العدد البصري^(٥) والحجازي^(٦) لمشاكلتها لفواصل السورة، وأسقطها الباكون لعدم المساواة مع ما قبلها وما بعدها طولاً وقصراً .

^(١) عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي، مقريء محقق، ولد في دمنهور بمصر، حفظ القرآن الكريم ثم أخذ القراءات العشر، وتولى رئاسة قسم القراءات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، له مصنفات كثيرة منها (الوافي) في شرح الشاطبية و(نفائس البيان في عد آي القرآن) . إتمام الأعلام (ص ١٦٠) .
^(٢) منظومة الفرائد الحسان في عد آي القرآن لعبد الفتاح القاضي (ص ٥، ١٣) .
^(٣) المصدر السابق نفسه.

^(٤) هو ما يرويه حمزة وسفيان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بواسطة ثقات ذوي علم وخبرة. وعدد آي القرآن فيه ٦٢٣٦. نفائس البيان (ص ٢٦، ٢٧).

^(٥) هو ما يرويه عطاء بن يسار وعاصم الجحدري. وعدد آي القرآن فيه ٦٢٠٤. نفائس البيان (ص ٢٦).

^(٦) هو العدد المدني الأول (ما يرويه نافع عن شيخه أبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح وهو ما يرويه أهل الكوفة عن أهل المدينة بدون تعيين، وعدد آي القرآن فيه ٦٢١٧) والعدد المدني الأخير (ما يرويه اسماعيل بن جعفر عن يزيد وشيبة بواسطة سليمان بن جمار . وعدد آي القرآن فيه ٦٢١٤) والعدد المكي (ما رواه الإمام الداني بسنده إلى ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعدد آي القرآن فيه ٦٢١٠). نفائس البيان (ص ٢٥، ٢٦).

وأسقط العدد الشامي ^(١) ﴿حَم﴾ و ﴿مِهِينُ﴾ فلم يعد أيّاً منهما رأس آية ^(٢).
 فصار عدد آيات السورة تسعاً وثمانين آية عند البصري والحجازي لإسقاطهم (حم)، وتسعاً
 وثمانين عند الكوفي لإسقاطهم (مهين)، وثمانياً وثمانين عند الشامي لإسقاطهم (حم) و (مهين).
 والله أعلم.

^(١) هو العدد الحمصي (وهو ما أضيف إلى شريح بن يزيد الحمصي الحضرمي وعدد آي القرآن فيه ٦٢٣٢) والعدد الدمشقي (وهو ما رواه يحيى الذماري عن ابن عامر اليحصبي عن أبي الدرداء، وينسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعدد آي القرآن فيه ٦٢٢٧ وقيل ٦٢٢٦). نفائس البيان (ص ٢٦).
^(٢) ينظر: البيان في عدد آي القرآن (ص ٢٢٣)، القول الوجيز للمخللاقي (ص ٨٦، ٨٧)، إتخاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد البنا (٢/٤٥٣)، نفائس البيان لعبد الفتاح القاضي (ص ٥٩).

المبحث الرابع

تاريخ نزول سورة الزخرف

تاريخ نزول السورة: هو معرفة المرحلة الزمنية لنزولها أو الحادثة أو الغزوة التي صاحبت نزولها والقبلية والبعدية بالنسبة لسورة أخرى، ومعرفة تاريخ نزول السور له أثره في تفسيرها، فإذا ثبت تاريخ نزول الآية أو السورة فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير، فإن اختلف العلماء في تفسير آية من كتاب الله فالقول الذي يوافق تاريخ نزول الآية هو القول الراجح والقول الذي يخالف تاريخ نزولها هو المرجوح^(١).

وسورة الزخرف نزلت في العهد المكي قبل الهجرة، وهي السورة الثانية والستون في ترتيب نزول سور القرآن الكريم الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف^(٢).

نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدخان .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

" كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم ... إلى أن قال: ثم حم السجدة ثم حم عسق ثم حم الزخرف ثم حم الدخان " ^(٣).

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحري، بتصريف يسير (ص ٢٥٨ ، ٢٦٠) .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٧/٢٥) .

(٣) تقدم ذكره (ص ٢٧) .

قال الإمام الزركشي^(١): " أول ما نزل من القرآن بمكة : اقرأ باسم ربك الذي خلق ثم ن والقلم ... إلى أن قال: ثم حم عسق ثم حم الزخرف ثم حم الدخان " ^(٢) .

وقال ابن عاشور^(٣): " والسور المفتحة بكلمة (حم) سبع سور مرتبة في المصاحف على ترتيبها في النزول " ^(٤) .

وقيل نزلت بعد سورة فصلت .

روي عن جابر بن زيد^(٥) قال : " أول ما أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك ... إلى أن قال: ثم حم السجدة ثم حم الزخرف ثم حم الدخان " ^(٦) .

قال الإمام السيوطي^(٧): " هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن، وقد اعتمد البرهان الجعبري^(٨) على هذا الأثر في قصيدته التي سماها تقريب المأمول في ترتيب النزول فقال :

مكيها تسع ثمانون اعتلت رتبها وفق النزول لمن تلا

^(١) تقدمت ترجمته (ص ٦).

^(٢) البرهان (ص ١٣٦) .

^(٣) تقدمت ترجمته (ص ٢٦).

^(٤) التحرير والتنوير (٧٦/٢٤) .

^(٥) جابر بن زيد الأزدي البصري روى عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم وغيرهم وروى عنه قتادة وجماعة، وعن ابن عباس أنه قال: " لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله " . ت ٩٣هـ . تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٧٩/١).

^(٦) الإتيان للسيوطي (ص ٧٧).

^(٧) تقدمت ترجمته (ص ٢٥).

^(٨) إبراهيم بن عمر الجعبري عالم بالقراءات من فقهاء الشافعية له نظم ونثر، يكنى (برهان الدين) و(تقي الدين)، له مصنفات منها (نزهة البررة في القراءات العشرة) و(عقود الجمان في تجويد القرآن) . ت ٧٣٢هـ . الأعلام لخير الدين بن محمود للزركلي (١/٥٥) .

إلى أن قال :

مع غافر مع فصلت مع زحرف ودخان جاثية وأحقاف تلا " (١)

فهذا قول مرجوح، والراجح - والله أعلم - أنها نزلت بعد سورة الشورى (٢).

وأما الآية الخامسة والأربعون وهي قوله تعالى: ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ففيها أقوال:

١/ أنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء، وهو اختيار القرطبي (٣) وجماعة من المفسرين كما

سيأتي. (٤)

٢/ أنها نزلت بمكة، وهو الأرجح - والله أعلم - لما سبق من الآثار في نزول السورة جميعاً في

(١) الإتيان (ص ٧٧ ، ٧٨) .

(٢) قال محمد عزت دروزه في كتابه التفسير الحديث (٤/٤٩٠، ٤٩١) : " ويلحظ أن عروبة القرآن وصلته بالله تعالى كانتا موضوعاً رئيسياً في السور الثلاث السابقة وبخاصة في سورتي فصلت والشورى ثم في هذه السورة فضلاً عما قبلها مما يدل على اشتداد لجاح الكفار في هذا الموضوع، وعلى صحة ترتيب هذه السور وتتابعها في النزول " .

(٣) محمد بن أحمد بن أبي بكر المالكي القرطبي إمام متفنن متبحر في العلم مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان (الجامع لأحكام القرآن)، ت ٦٧١هـ. طبقات المفسرين للأدنه وي (ص ٢٤٧).
(٤) قال الزركشي: " نزلت عليه ليلة أسري به " البرهان في علوم القرآن (ص ١٣٩)، وقال الفيروز أبادي: " نزلت ليلة المعراج، لما اقتدى به - صلى الله عليه وسلم - الأنبياء في الصلاة في المسجد الأقصى، وفرغ من الصلاة، نزل جبريل بهذه الآية " . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/١٠١) .

العهد المكي قبل الهجرة، وللإجماع على مكة السورة ومكة الحواميم جميعاً، واستثنى الزركشي^(١) من الحواميم آية الأحقاف ولم يستثن هذه الآية - وسيأتي إن شاء الله في المبحث التالي - .

٣/ أنها نزلت في المدينة^(٢) .

٤/ أنها نزلت في السماء ليلة المعراج^(٣) أو بين السماء والأرض^(٤) ، وهو بعيد .

وللمفسرين في هذه الآية أقوال :

منها: أن الأمر على ظاهره، فالمقصود أمره صلى الله عليه وسلم بسؤال الرسل والأنبياء الذين صلى بهم ليلة الإسراء، فعلى هذا التفسير يكون نزول الآية ببيت المقدس، قالوا : جمع الله له المرسلين ليلة أسري به ببيت المقدس فأمرهم وصلى بهم وأمره الله تعالى أن يسألهم فكان أشدّ إيماناً و يقيناً بالله وبما جاء من الله أن يسألهم^(٥) .

(١) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

(٢) قال الشوكاني: " قال القرطبي: هي مكة بالإجماع ... قال مقاتل: إلا قوله: ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ يعني : فإنها نزلت بالمدينة " . فتح القدير (ص ١٣٣٤) .

(٣) ينظر: الإتيان للسيوطي (ص ٥٤) ، القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي (ص ٢٨٦) .

(٤) نقل السيوطي عن ابن العربي أنها نزلت في الفضاء بين السماء والأرض ، قال : ولم أقف على مستند لما ذكره فيها. الإتيان (ص ٧٣) .

(٥) ينظر ما أخرجه ابن جرير في جامع البيان عن ابن زيد (٦٠٥/٢٠) ، وهذا قول ابن عباس والزهري وسعيد بن جبير وابن زيد، ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٢١٦/٧) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧ / ٥) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥٥ ، ٥٤/١٩) .

قال القرطبي^(١): " هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية " (٢).

والذي عليه أكثر المفسرين - واختاره ابن جرير^(٣) - أن المراد بالآية :

اسأل مؤمني أهل الكتابين وأتباع رسلنا هل جاء رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم بعبادة غير الله عز وجل، يدعو إلى الشرك وإلى اتخاذ آلهة أخرى، فالسؤال تقرير لمشركي قريش بأن التوحيد هو دعوة جميع الرسل ولم يأت كتاب ولا رسول بعبادة غير الله^(٤).

قال الزمخشري^(٥) : " ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحاطته ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء " (٦). والآية على هذا التفسير منسجمة في السياق والموضوع انسجاماً تاماً^(٧)، كما أن في القرآن آيات عديدة فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بسؤال أهل الكتاب مما يدعم هذا القول،

(١) تقدمت ترجمته (ص ٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥٥/١٩).

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٢٥).

(٤) وهو قول ابن عباس و الضحاك والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء، ينظر: جامع البيان

(٥٤/٢٠-٦٠٦)، معالم التنزيل للبغوي (٢١٦/٧)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧/٥)، الجامع

لأحكام القرآن للقرطبي (٥٥/١٩، ٥٦).

(٥) محمود بن عمر الزمخشري جار الله النحوي اللغوي المتكلم المفسر، كان ممن برع في النحو والأدب واللغة، وله التصانيف البديعة منها الكشاف في التفسير وأساس البلاغة والمفصل في النحو. ت ٥٣٨هـ. طبقات المفسرين للأدنه وي (ص ١٧٢).

(٦) الكشاف (٤٤٦/٥).

(٧) فهي تنديد بالمشركين وتعريض بهم ورد لقولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، وسيوضح تناسب الآية مع السياق في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

منها قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ

قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ [يونس: ٩٤] ^(١) ^(٢).

فالقول الثاني هو الأقرب أنها مجاز بمعنى (سل أتباع رسلنا)، فهي من قبيل قوله تعالى: ﴿

وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢] بمعنى واسأل أهل القرية ^(٣)، والله تعالى

أعلم .

^(١) ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤/٤٨٨، ٥٠٨) .

^(٢) ومما يدعم هذا القول كذلك ما أخرجه الصنعاني في تفسيره (١٩٧/٢) وابن جرير في جامع البيان

(٢٠ / ٦٠٤) عن قتادة في بعض الحروف (واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا) .

^(٣) قال الدكتور محمد الفالح: " وهذا إن صح في أنه المراد فهو لا يتعارض مع مكية الآية فكم من الآيات

المكية التي تحدثت عن أهل الكتاب". المكِّي والمدني من السور والآيات (ص٢٨٩) .

الفصل الثاني

مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما
اختصت به، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : المكي والمدني في سورة الزخرف.

المبحث الثاني : مناسبة سورة الزخرف لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث : وجه اختصاص سورة الزخرف بما اختصت

به.

المبحث الأول

المكي والمدني في سورة الزخرف

لمعرفة المكي والمدني في القرآن فوائد عظيمة من أهمها معرفة المتأخر من الآيات والمتقدم لتميز ناسخها ومنسوخها، و معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم^(١) .
والذي اختاره العلماء في تعريف المكي والمدني: هو أن المكي ما نزل قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله بغير المدينة، وهذا التعريف هو الأشهر والأشمل^(٢) .

وسورة الزخرف من السور المكية وهي إحدى الحواميم السبع وجميعها نزلت بمكة .
عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: " كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء وكان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم ... إلى أن قال: ثم حم الزخرف " ^(٣) .

قال ابن عطية^(٤) و القرطبي^(٥) في تفسير سورة الزخرف :

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (ص ٣٥)، مناهل العرفان للزرقاني (١ / ١٦١) .
(٢) ينظر: البرهان للزركشي (ص ١٣٢)، الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (ص ٣٥)، مناهل العرفان للزرقاني (١ / ١٥٩ - ١٦٠) .

(٣) تقدم ذكره (ص ٢٧) .

(٤) هو عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الأندلسي، كان فقيها عارفا بالأحكام والحديث والتفسير بارع الأدب بصيرا بلسان العرب. له تفسير (المحرر الوجيز) وهو من أجل من صنف في علم التفسير، ت ٥٤٦ هـ.

طبقات المفسرين (ص ١٧٥) .

(٥) تقدمت ترجمته (ص ٤٠) .

مكية بإجماع.^(١)

وقال الزركشي^(٢) :

"الحواميم كلها مكيات غير آية في الأحقاف نزلت في عبد الله بن سلام^(٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف : ١٠] " ^(٤) .

واستثني من السورة قوله تعالى : ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(٥) ، فقيل نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس ليلة الإسراء، وتقدم تفصيله بما يغني عن إعادته هنا^(٥) .

وخلاصة القول أن هذه الآية وإن نزلت ببيت المقدس أو بالمدينة أو بالسماة فهي مكية على التعريف المشهور لأنها نزلت في العهد المكي قبل الهجرة، فسورة الزخرف جميعها مكية والله أعلم .

قال الطاهر ابن عاشور^(٦) : " وهي مكية، وحكى ابن عطية^(٧) الاتفاق على أنها مكية، وأما

^(١) المحرر الوجيز (٤٥/٥)، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٩) .

^(٢) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

^(٣) عبد الله بن سلام بن الحارث، أسلم عند قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة وشهد له الرسول بالجنة، شهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس، وقيل شهد بدرًا وقيل شهد الخندق و ما بعدها. ٤٣ هـ . تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٥١/٢) .

^(٤) البرهان (ص ١٤٢) .

^(٥) ينظر: المبحث السابق (تاريخ نزول سورة الزخرف) .

^(٦) تقدمت ترجمته (ص ٢٦) .

^(٧) تقدمت ترجمته (ص ٤٥) .

ما روي عن قتادة ^(١) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٢) أن آية ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ نزلت بالمسجد الأقصى فإذا صح لم يكن منافياً لهذا لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة " ^(٣) .
والله تعالى أعلم .

^(١) هو قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب الضرير الأكمه حافظ العصر قدوة المحدثين والمفسرين، وكان من أوعية العلم، يضرب به المثل في قوة الحفظ، وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، ت ١١٨ هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٠٨٢/٢) .

^(٢) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، مولى بن عمر من أهل المدينة، وهو ضعيف الحديث، كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك، توفي سنة ١٨٢ هـ . المجروحين لابن حبان (٥٧/٢)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٥٠٧/٢) .

^(٣) التحرير والتنوير (١٥٧/٢٥) .

المبحث الثاني

مناسبة سورة الزخرف لما قبلها وما بعدها

إن ترتيب سور القرآن الكريم على الوجه الذي نراه اليوم في المصاحف توقيفي على أرجح أقوال العلماء، ومما يدل على ذلك إجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه بالترتيب الذي وصل إلينا، وأن بعض السور المتماثلة لم ترتب ولاءً^(١)، وهو ما رجحه الزركشي^(٢) في البرهان^(٣) والإمام السيوطي^(٤) الذي يقول في الإتقان^(٥):

" ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء وكذا الطواسين ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت طس عن القصص " ^(٦) .
ومما يؤيد ذلك وجود التناسب والترابط بين فواتح السور وخواتم السور التي قبلها، قال

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١/٢٨٨، ٢٨٩) .

(٢) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

(٣) ص (٣٨، ١٨٣) .

(٤) تقدمت ترجمته (ص ٢٥) .

(٥) ص (١٦٦) .

(٦) وذهب بعض العلماء إلى أن ترتيب السور اجتهادي واستدلوا على ذلك باختلاف مصاحف الصحابة

في ترتيب السور، ينظر: الإتقان للسيوطي (ص ١٦٤)، مناهل العرفان للزرقاني (١/٢٨٧)، وذهب

بعضهم إلى أن بعض ترتيب السور توقيفي وبعضه اجتهادي، ورآه الزرقاني أمثل الآراء، مناهل العرفان

(ص ٢٩٠) ثم يقول: " وسواء كان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً فإنه ينبغي احترامه خصوصاً في كتابة

المصاحف لأنه عن إجماع الصحابة والإجماع حجة " . مناهل العرفان (١/٢٩١) .

الزركشي^(١): " إذا اعتبرت افتتاح كل سورة، وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى " ^(٢).

فكتاب الله تعالى محكم منيع ولنظمه المتقن إعجاز بديع ولترتيب آياته وسوره أسرار وأغراض، ولا تنكشف هذه الأغراض أتم انكشاف إلا لمن خاض غمرة هذا الكتاب، وصار من أوله وآخره وأثنائه على ثقة و صواب، وما يذكر إلا أولوا الألباب " ^(٣).

وسورة حم الزخرف تتوسط سور آل حم، واقعة بعد حم عسق وقبل حم الدخان .

المطلب الأول

مناسبة سورة الزخرف لسورة الشورى

أولاً: مناسبة فاتحة الزخرف لخاتمة الشورى :

ختم الله سبحانه وتعالى سورة الشورى بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] .

وافتح الزخرف بقوله جل شأنه: ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا

(١) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (ص ٣٨) .

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١/ ١٦) .

عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ [الزخرف: ٤-١].

فختمت الشورى بالوحي وافتتحت الزخرف بالوحي، امتن سبحانه وتعالى في الشورى بالوحي الذي أنعم به على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وسماه روحاً، ولم يكن له ولا لأمته سابق معرفة به فصار به هادياً إلى صراط الله، فهو روح وحياة لهم يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وافتتح الزخرف بالقسم بهذا الكتاب المبين والنور الهادي إشادة به وتأكيداً على مكانته وأنه شرف لهذا الرسول ولقومه، وأنه أنزل عربياً ليعقلوه ويفهموا ما فيه من تشريعات وأحكام ويهتدوا به بعد أن لم يكونوا يعرفون ما الكتاب ولا الإيمان . واللوح المحفوظ أم الكتاب الذي جاء في مطلع الزخرف في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾ هو الأصل الذي انبعث منه هذا النور المذكور في مقطع الشورى ^(١) .

"ثم كان قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا

مُسرِّفِينَ ﴾ ﴿٥﴾ تهديداً لهؤلاء الذين جعل الله إلى أيديهم مفاتيح هذا النور أن يصرف عنهم هذا العطاء الجزيل، إذا هم لم يقبلوه، ويحسنوا الانتفاع به " ^(٢) .

ثانياً : المناسبة بين السورتين في الفواتح :

ومن مناسبة مطلعها لمطلع الشورى أن كلا السورتين افتتحتا بالحروف المقطعة ونوهتا بفضل

^(١) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠٠) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٣٧٧/١٧) ، جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل الغماري (ص ٩٦) ، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢٤٦/٢ ، ٢٤٧) .
^(٢) التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب (١٠٢/١٣) .

القرآن وإنزاله عربياً، فقال تعالى في فاتحة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْيَبٍ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ
﴾ [الشورى: ٧].

وقال في فاتحة الزخرف: ﴿ حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمَّرٍ أَلْكِتَابٍ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ .

ثالثاً : المناسبة بين السورتين في الخواتيم :

تحدث سبحانه وتعالى في خاتمة السورتين عن عظمته وملكوته في السماوات والأرض وأن جميع
الخلائق صائرون إليه، فقال سبحانه في الشورى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال : ﴿
صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝﴾ [الشورى:
٥٣].

وقال في الزخرف: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٨٤
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴾ . ﴿ ٨٥ ﴾

رابعاً: المناسبة بين السورتين في الموضوعات:

- ذكر سبحانه وتعالى في سورة الشورى أنه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ٤٩﴾ أو يزوجهم ذكراناً وإنثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنَّه، عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿[الشورى: ٤٩، ٥٠]، فأعلم أن ذلك يكون بقدرته وإرادته ويجب على العبد الرضا والتسليم بقضاء الله وحكمه، وعنف في سورة الزخرف الذين يسخطون من حكم الله ويعترضون على مشيئته تعدياً وكفراً، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧] (١).

- وبين في الشورى تدييره للأرزاق وإنزالها بقدر معلوم والإنعام بها كيف يشاء، وأنه لو بسط الرزق لبغي الإنسان وطغى، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وأكد هذا المعنى في الزخرف فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] (٢).

(١) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن لأبي الزبير الغرناطي (ص ٣٠٠، ٣٠١) .

(٢) ينظر المصدر السابق (ص ٣٠١) .

المطلب الثاني

مناسبة سورة الزخرف لسورة الدخان

أولاً: مناسبة خاتمة الزخرف لفاتحة الدخان:

جاء في سورة الزخرف وعيد مجمل وتقريع للمشركين في قوله: ﴿ أَمْ أَلْمَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾

[الزخرف: ٧٩] وقوله: ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

﴿ [الزخرف: ٨٣]، وقوله: ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩] .

وفصل هذا الوعيد في سورة الدخان وبين بعض ما سيعلمون واليوم الذي يوعدون ، فقال

سبحانه : ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠]، وقال : ﴿ يَوْمَ

نَبِّئُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦] ، و فسر بأنه عذاب يوم بدر^(١)،

إضافة إلى ما يوعدون في الآخرة من العذاب الأليم^(٢) .

قال أبو حيان^(٣) في أول تفسير سورة الدخان :

" ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٧ / ٧) .

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣٣ / ٨)، البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠٢، ٣٠٣) ، جواهر البيان في تناسب سور القرآن للغماري (ص ٩٧) .

(٣) هو محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي الحافظ المفسر النحوي شيخ النحاة وإمام المفسرين في عصره، صنف المصنفات المشهورة الكثيرة من أنفسها البحر المحيط في التفسير، ت ٥٧٤٥. طبقات المفسرين للأذنة وي (ص ٢٧٨)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبه (٨٨ / ٣ - ٩٢) .

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿ [الزخرف: ٨٣] فذكر يوماً غير معين ولا موصوفاً، فبين في أوائل هذه

السورة ذلك اليوم بوصف وصفه، فقال: ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] وأن العذاب يأتيهم من قبلك، ويحل بهم من الجذب والقحط، ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة " (١).

ثانياً: المناسبة بين السورتين في الفواتح :

• افتتحت كل من سورتي الزخرف والدخان بالتنويه بكتاب الله بقوله تعالى : ﴿ حَمِّ ﴾

وَأَلْكِتَبِ الْمُبِينِ ﴿ . وهذا الاتفاق في المطلع إشارة إلى التقارب الشديد بين محتويات السورتين (٢) .

• عرضت سورة الزخرف خصائص القرآن وتنزيله بالوحي وبينت أصل الكتاب الذي نزل منه وهو اللوح المحفوظ، وتتابع الكلام عن هذا الكتاب العزيز فبعد أن ذكر مصدره استفتحت الدخان بذكر وقت إنزاله وهو الليلة المباركة في الشهر المبارك، فهو تعضيد لما سبق من التنويه بعظمة هذا الكتاب (٣) .

(١) البحر المحيط (٣٣/٨) .

(٢) ينظر: جواهر البيان في تناسب سور القرآن للغماري (ص ٩٧) ، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٥٥٠/٢) .

(٣) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠١، ٣٠٢) ، دراسة في أسرار البيان (٥٥٠/٢) ، (٥٥١) .

قال محمد عزت دروزة ^(١) في حديثه عن فاتحة الدخان: " والآيات في صدد توكيد نسبة القرآن إلى الله، ثم في صدد توكيد صدق رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وكونها رحمة للناس، وهكذا جاء مطلع السورة متسقاً في أسلوبه وهدفه مع مطالع شقيقتها الحواميم" ^(٢) .

ثالثاً: المناسبة بين السورتين في الخواتيم:

• تحدثت خاتمة سورة الزخرف عن المرجع والمصير وما يكون فيه من أمر الشفاعة، فقال سبحانه: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ، وذكرت خاتمة الدخان مصير المؤمنين في ذلك اليوم وفوزهم العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ .

• في ختام سورة الزخرف أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمتاركة قومه بعد أن جادلهم وأقام الحجج عليهم، فأمره بالإعراض عنهم وإرجاء أمرهم إلى خالقهم ، فقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة . قال سبحانه: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩]، وتكرر هذا الأمر في آخر الدخان في قوله: ﴿فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: ٥٩] .

(١) محمد عزت عبدالهادي دروزة ، مؤرخ باحث من أهالي فلسطين، له أكثر من ثلاثين كتاباً مطبوعاً في التاريخ والتربية والسياسة والدراسات الإسلامية منها (التفسير الحديث) و (الإسلام والمبشرون) و(بواعث الحرب العالمية الأولى) ، توفي بدمشق عام ١٤٠٤ هـ. إتمام الأعلام، د.نزار أبابطة ومحمد المالح (ص٢٥٦) .

(٢) التفسير الحديث (٤/٥٣٥) .

رابعاً: المناسبة بين السورتين في الموضوعات:

عرضت سورة الزخرف قصة فرعون مع موسى عليه السلام واستكبار فرعون وطغيانه وعتوه هو

وقومه ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

﴿ ٥١ ﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿ [الزخرف: ٥١-٥٢] فانتقم الله

منهم فأغرقهم أجمعين، وجاءت الدخان بالتنكيل بأبي جهل الذي سلك مسلك فرعون وقال:

لقد علمت أني أمتنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم^(١)، وقال: ما بين جبلية رجل أعز ولا

أكرم مني^(٢). فقال له الله سبحانه: ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سوء الجحيم ﴾ ﴿ ٤٧ ﴾ ثم صبوا

فوق رأسه من عذاب الحميم ﴿ ٤٨ ﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿ [الدخان

: ٤٧-٤٨-٤٩] ، فجازاه من جنس عمله و كانت عاقبة كبره أن استهزأ الله به وعذبه

والمشركين الذين منعهم الكبر من اتباع الحق وجعلهم في أسفل سافلين مع فرعون وقومه^(٣).

• " ذكر سبحانه هناك قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ يَكْرَبُ إِنَّ هَتُولَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ [الزخرف: ٨٨] وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى

(١) أخرج الواحدي عن عكرمة قال: لقي النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل فقال أبو جهل: لقد

علمت أني أمتنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله يوم بدر وأذله، وعيره بكلمته ونزل فيه ﴿

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾. أسباب النزول (٧٤٢) (ص ٣٩٢).

(٢) أخرج الصنعاني في تفسير القرآن (٢/٢٠٩) وابن جرير في جامع البيان (٢١/٦١) عن قتادة قال:

نزلت في أبي جهل ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ قال أبو جهل: ما بين جبلية رجل أعز ولا أكرم مني، فقال الله

عز وجل: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾.

(٣) ينظر البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠٣).

﴿ فَدَعَارِبُهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢]، وأيضاً ذكر فيما تقدم ﴿ فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩] وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ (٢٠) وَإِن لَّمْ نُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّنَا لِي ﴾ [الدخان: ٢٠ - ٢١] وهو قريب من قريب " (١) .

خامساً: مناسبة فاتحة الزخرف لحاتمة الدخان:

قال تعالى في آخر الدخان: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨] فأكد معنى سبق في مطلع الزخرف: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] .

وبذلك يتحصل أن عروبة اللسان في الذكر الحكيم ذكر في مطلع سورة ومقطع التي تليها، وكأننا لو رجعنا بقوله ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨] إلى قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] ورددنا بذلك العجز على الصدر نكون قد جعلنا السورتين سورة واحدة، وأن الدخان امتداد للزخرف " (٢) .

والله تعالى أعلم .

(١) روح المعاني للألوسي (١١٠ / ٢٥) .

(٢) دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٥٥١ / ٢) .

المبحث الثالث

وجه اختصاص سورة الزخرف بما اختصت به

اختصت سورة الزخرف بذكر معان لم ترد في غيرها من سور القرآن الكريم، وهي معان تناسبت مع سياق السورة العام وارتبطت بآياتها وأحداثها وتلاءمت مع عنوانها وأهدافها، ومن أبرز ما ظهر لي منها :

١- اختصت سورة الزخرف بذكر شبهة قريش في قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ

مِنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ والرد عليها دفاعاً عن هذا الكتاب وعن الموحى إليه صلوات الله وسلامه عليه، لأن السورة افتتحت بالقسم بالكتاب المبين ونوهت في آياتها بفضله ومكانته، وقصدت إلى تشريف شأنه والدفاع عنه ، وكان بيان منزلته والأمر بالاستمسك به من أعظم أهدافها .

٢- واختصت السورة بتصوير الذهب في السقف و المعارج والأبواب والسرر، ولأهل الجنة في آنية الطعام والشراب، ليصب ذلك في مجرى مقصود السورة من إظهار زيف الزخرف الدنيوي تبشيراً للصابرين على إغوائه وإغرائه، وترغيباً في زخرف الجنة، وتأكيداً لحقيقة الفوز والفلاح في قوله: ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ .

٣- وذكرت سورة الزخرف أن تقسيم المعاش وتفانوت الدرجات بين الناس بيد الله وحده لحكمته وعلمه وليتخذ بعضهم بعضاً سحرياً، لأن هذا المعنى يخدم مقصود السورة فهو يدعو إلى الرضا بقسمة الله والتعلق به ونبذ الدنيا والسعي وراء سراب ملذاتها .

٤- ذكرت السورة نداء فرعون مفتخراً بأهواره وملكه: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ومطالبتة بأسورة الذهب في قوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ
 أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ واختصت بذكر هذا الجانب
 من قصة موسى وفرعون وجاءت القصة بمحكمة موجزة لتؤدي الغرض من ذكرها في الزخرف،
 وللوصول إلى نتائجها التي تظهر مقاصد السورة وتتماشى مع سياقها، فقصة آل فرعون تحذر
 قريشاً من مصير أسلافهم وتذكرهم أن الله قد أهلك أشد منهم بطشاً كما أنذرهم في أول
 السورة، وتقرر أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعاً من الرسل بل جاءهم بما جاء به
 موسى عليه السلام وهو إثبات الألوهية لله وحده، وتحذر بإهلاك فرعون القائل: ﴿فَقَالَ أَنَا
 رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] كل من يجذو حذوه ويشاقق الله ورسوله، وهي تدحض قول قريش
 ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ و تجلي المعنى في قوله تعالى ﴿
 وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ بانتصار موسى على أملاك فرعون وأنهاره وكنوزه ﴿وَإِنْ
 كُنْ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾، وهي تبين مقاييس
 التفاضل بحكايتها لمصير فرعون وقومه عندما غرهم زخارف الدنيا التي تهدف السورة إلى بيان
 زيفها وخسراتها وحذلائها للمتعلقين بها (١) .

(١) قال ابن عاشور: "ومن المقصود بالخصوص من قصة موسى هنا: ... " قوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ
 ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] لأنه مشابه لما تضمنه قول صناديد قريش: "على
 رجل من القرينتين عظيم" فإن عظمة ذينك الرجلين كانت بوفرة المال ولذلك لم يذكر مثله في غير هذه القصة من
 قصص بعثة موسى عليه السلام، التحرير والتنوير (٢٥/٢٢٤) . وقال الشيخ أبو موسى: " وإنما ذكر نداء فرعون
 في الزخرف لأنه متضمن المعنى الذي سيق له والمناسب لقول أهل مكة ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ
 الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ دراسة في أسرار البيان (٢/٤٢٨) .

٥- اختصت بذكر حال الأخلاء المجتمعين في الدنيا على سخط الله وعداوتهم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) لما عرض فيها من صور الخلة بين الكفرة والتعاقد في محاربة الرسل حيث كانوا يضحكون ويهزأون ويصدون متعاونين على الشر وأحباء فيه متناسين خلافتهم فقد جمع قلوبهم الكفر وبغض الحق^(١)، فأعطتهم الآية النتيجة لخلتهم هذه، سيكونون أعداء بعد أن كانوا أخلاء، وسيقول الخليل لخليله: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينَ﴾ (٣٨) وسيجابون زيادة في العذاب والنكال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩).

والله تعالى أعلم .

^(١) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٤٧٧/٢) .

الفصل الثالث

أسباب النزول الواردة في السورة ومقاصدها وأهدافها، وفيه

مبحثان:

المبحث الأول : أسباب النزول الواردة في سورة الزخرف.

المبحث الثاني : مقاصد سورة الزخرف وأهدافها.

المبحث الأول

أسباب النزول الواردة في سورة الزخرف

أولاً: تعريف سبب النزول وأهمية العلم به:

تعريف سبب النزول: " هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال " (١).

ومن أهم فوائد معرفة سبب النزول :

١/ " تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها" (٢).

٢/ أن معرفة سبب النزول يعين على معرفة تاريخ نزول الآية و بالتالي يعين على تفسيرها " لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب" (٣).

قال الواحدي (٤) في مقدمة كتابه (أسباب النزول): " فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين بعلوم الكتاب، إبانة ما أنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها وأولى ما تصرف

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١/٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/٩٥).

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٤٧).

(٤) علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي، كان واحد عصره في التفسير، لازم أبا إسحاق الثعلبي وتصدر للإفادة والتدريس مدة، وصنف التفاسير الثلاثة (البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز)، ت ٤٦٨ هـ.

طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٧٨).

العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها" (١).

ثانياً: ما ورد من أسباب النزول في سورة الزخرف:

١- ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ

عَظِيمٍ ۝٣١ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

عن قتادة (٢) قال: قال الوليد بن المغيرة (٣): لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل علي هذا القرآن أو على ابن مسعود الثقفي (٤) فنزلت (٥).

٢- ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصِدُّونَ ۝﴾ [الزخرف: ٥٧].

ورد في سبب نزولها أن المشركين لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿

(١) أسباب نزول القرآن (ص ١٠).

(٢) تقدمت ترجمته (ص ٤٧).

(٣) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، من زعماء قريش وزنادقتها كانت قريش تكسو البيت جميعها والوليد يكسوه وحده، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته، توفي بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو والد سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه. الأعلام للزركلي (١٢٢/٨).

(٤) هو الصحابي عروة بن مسعود الثقفي كان أحد الأكابر من قومه، لما أسلم استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى قومه فيدعوهم للإسلام فرجع فدعاهم فرموه بسهم فقتلوه، ت ٩هـ. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢٣٨/٤).

(٥) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (١٩٦/٢)، وابن جرير في جامع البيان (٥٨١/٢٠)، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية (٢٠٠/١). وقول التابعي في سبب النزول يقبل إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، أو اعتضد بمرسل آخر أو نحو ذلك. المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبه (١٤٤/١).

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبٌ ^(١) جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿[الأنبياء: ٩٨]

ضربوا له المثل ببعيسى ابن مريم جدلاً فقال عبد الله ابن الزبيري ^(٢) : أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً والنصارى تعبد المسيح ابن مريم . فأعجب القوم بحجته وضجوا وفرحوا، وقالوا ألهتنا خير أم هو، إن كان عيسى من حسب جهنم فإن أمر آلهتنا الحجاره أهون، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿[الأنبياء: ١٠١]، وأنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿^(٣)

(١) الحصب كل ما ألقيته في النار من حطب وغيره . لسان العرب (٢/٨٩٣ ، ٨٩٤) .

(٢) عبد الله بن الزبيري بن قيس السهمي القرشي، شاعر قرشي في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين في الجاهلية ثم أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه ومدح النبي صلى الله عليه وسلم. ت ١٥هـ. أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/١٣٥)، الأعلام (٤/٨٧) .

(٣) وذلك فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش: " يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير . وقد علمت قریش أن النصارى تعبد عيسى بن مريم وما تقول في محمد. فقالوا: يا محمد ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون. قال: فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿ قال قلت: ما يصدون؟ قال: يضحون ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ ﴿ قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة " . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩١٨) (٥ / ٨٥) ، والحاكم في المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي . المستدرک للحاكم وبذيله التلخيص للذهبي (٢ / ٣٨٤) . والطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ١٥٣) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٠٤) : " وفيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره وهو سيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح " ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨ / ٣٢٠) (٧ / ٦٣٣) : " إسناده حسن رجاله ثقات، غير أن ابن بهدلة فيه كلام يسير لا ينزل حديثه عن مرتبة الحسن " .

٣- ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا

لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

أخرج ابن جرير^(١) عن محمد بن كعب القرظي^(٢) قال: " بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد من الثلاثة: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال الأول: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع، قال الثاني: إن كان يسمع إذا أعلنتم فإنه يسمع

إذا أسررتم. قال: فنزلت: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ

يَكْتُمُونَ ﴾ " (٣). والله تعالى أعلم.

(١) تقدمت ترجمته (ص ٢٥).

(٢) محمد بن كعب بن سليم القرظي تابعي عالم بالقرآن من أئمة التفسير، حدث عن أبي هريرة وابن عباس ومعاوية وغيرهم، وهو يرسل كثيراً ويروي عن من لم يلقه كابن مسعود وعلي والعباس، ت ١٠٨ هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٣٦٤٧).

(٣) جامع البيان (٢٠/٦٥٣) ولم أفف عليه عند غيره. ورجال سنده: عمرو بن سعيد لم أفف له على ترجمة، أبو قتبية الشعيري وهو ثقة، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢/٦٦)، عاصم بن محمد وهو ثقة. تهذيب التهذيب (٢/٢٦٠).

ولفظ الحديث في الصحيحين إلا أنه مروى في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢]، صحيح البخاري كتاب التفسير باب "وما كنتم تستترون... الآية" (٤٨١٧) (ص ١٢١٤)، صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٥) (٤/٢١٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وإن صحت رواية ابن جرير فلا تعارض بين الروایتين لأنه قد تنزل الآيتان أو أكثر بسبب حادثة واحدة، قال الزرقاني في مناهل العرفان (١/١٠٢): " قد يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعددة، ولا مانع من ذلك لأنه لا يناقض الحكمة في إقناع الناس وهداية الخلق وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان".

المبحث الثاني

مقاصد سورة الزخرف وأهدافها

لكل سورة من سور القرآن الكريم نمط مستقل^(١) وأهداف تدور حولها وتقصد إليها، ومما يدل على ذلك تفصيل القرآن إلى سور، وكونها متفاوتة طولاً وقصراً، فالسورة طائفة مستقلة من القرآن ذات مطلع ومقطع، ومعرفة ابتدائها وانتهائها توقيفي لا اجتهاد فيه ولا اختلاف^(٢).

قال الزرقاني^(٣): " ومرجع الطول والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع إلى الله وحده لحكم سامية، علمها من علمها، وجهلها من جهلها "^(٤).

وقال الزمخشري^(٥) في فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً: " ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم "^(٦).

فمن هذا التفصيل نستوحي وجود وحدة موضوعية جامعة لمعاني كل سورة على حده، وهي ما يعبر عنها بمقصد السورة أو غرضها، ويتوصل إلى معرفة مقصد السورة بالنظر في موضوعاتها

^(١) قال الزركشي: " كل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصته وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم وغير ذلك ". البرهان (ص ١٨٧).

^(٢) ينظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/٢٨٥)، الموسوعة القرآنية المتخصصة (ص ٢١٩).

^(٣) تقدمت ترجمته (ص ٢٠).

^(٤) مناهل العرفان (١/٢٨٥).

^(٥) تقدمت ترجمته (ص ٤٢).

^(٦) الكشاف للزمخشري (١/٢٢٠).

والتأمل في قصصها وآياتها، قال الشاطبي^(١) : " اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الإقتصار على بعض الآيات في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد إكمال النظر في جميعها " (٢) .

إذن فالمقاصد هي أهداف السورة وأغراضها وموضوعاتها الكبرى، وهي محاورها الرئيسية التي نجدتها ماثورة في آياتها وموضوعاتها الجزئية وترتبط بينها برابط خفي، وبمعرفة هذه المقاصد يظهر تناسق آيات السورة وتلاحمها .

" ولأجل اختلاف مقاصد السور، تتغير نظوم القصص وألفاظها، بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد " (٣) ومن ذلك في سورة الزخرف ما ورد في قصة موسى عليه السلام من أحداث تناسب سياق السورة وتخدم مقصودها، كقول فرعون: ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٥٣] لمناسبة ذلك لمقصود السورة من نبد الزخرف، وقول موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف: ٤٦] لمناسبته لمقصد السورة إلى إثبات التوحيد بتقرير الربوبية ووحدة الرسالات في الدعوة إلى توحيد رب العالمين .

وسورة الزخرف تقوم على ثلاثة مقاصد :

١ - إثبات التوحيد لله رب العالمين.

وذلك في افتتاحها بالتوحيد واختتامها به وتقريرها له في آياتها، ويظهر ذلك من خلال :

(١) إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، من كتبه (الموافقات في أصول الفقه) و (المجالس) في شرح كتاب البيوع من صحيح البخاري، توفي عام ٥٧٩٠ هـ . الأعلام للزركلي (٧٥/١).

(٢) الموافقات (٤١٥/٣) .

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (تقريظ تقي الدين الحصني) (١٥٢/١).

• افتتاح السورة بتقرير إيمان المشركين بتوحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية في قوله تعالى:

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف

: ٩] وتسفيه عقولهم والتعجب من حالهم وضلالهم البعيد في إشراكهم بالله تعالى وإعراضهم

عن آياته مع هذا الإقرار ، ثم إعادة التقرير في ختام السورة : ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِهِمْ

لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ يُّؤْفِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] .

• بيان ضلال آبائهم وأجدادهم وسذاجة منطقتهم إذ يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا

على آثارهم مهتدون، وبيان حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام أشرف آبائهم الذي قال :

﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] .

• إبطال فريتهم أن الملائكة بنات الله عند قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ

عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩] وإثبات

عبوديتهم لله تعالى ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠] .

• دحض شبهات كفار قريش في عيسى عليه السلام وتقرير عبوديته لله وتبرئته من شركهم

فإنه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ودعا قومه إلى عبادة الله فاختلفوا من بعده واتخذوه شريكاً مع

الله .

• تنزيه الله سبحانه وتعالى عما نسبه إليه المشركون من اتخاذ الولد والشركاء ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٢] .

- بيان أن التوحيد هو دعوة جميع الرسل و أنه لم يأت رسول بغير ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والاستشهاد بإرسال موسى وعيسى عليهما السلام بالتوحيد، وتذكير قريش بجرمان سنة الله في إهلاك المشركين المستهزئين ودعوتهم إلى الاعتبار بسوء مآلهم .

٢- التحذير من الانخداع بالدنيا وزخرفها والترغيب فيما عند الله من الثواب.

وهو عنوان السورة، ويظهر من خلال :

- وضع المقاييس الحقيقية للشرف والتي لا تقاس بالمال والجاه، و رد قول المشركين ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] فإن تقسيم الأرزاق والاختيار لشرف النبوة بيد الله وحده الذي فاوت بينهم في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض وأعطى الدنيا للمؤمن والكافر والبر والفاجر لأن التفاضل الحق ليس إلا في اتباع دين الله .
- تحقير المتاع الدنيوي وبيان هوانه عند الله وأن الانخداع به يهوي بصاحبه ويلهبه عن ذكر الرحمن ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].
- بيان أن كل خلة بنيت على تقوى الله فهي دائمة وكل ما بني على حب الدنيا فهو إلى زوال . ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].
- وصف زخرف الجنة ونعيمها ليتبين زيف زخرف الحياة الدنيا .
- عرض قصة موسى مع فرعون لإثبات أن زخرف الدنيا متاع حقير ومتعة زائلة، فقد هلك فرعون وترك أسورة الذهب وأنهار النيل ولم يغن عنه ملكه و زخرفه من الله شيئاً .

٣- تشریف القرآن الکریم .

وذلك من خلال :

- افتتاحها بالتحدي بالقرآن الکریم دليل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإعظام شأنه بقسم الله تعالى به: ﴿حَمِّ ۝١﴾ وَأَلَكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿[الزخرف ١، ٢] والتنويه بشرفه وعلو مكانه، والامتنان من الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن جعله بلسان عربي مبين^(١) .

- الدفاع عن القرآن الکریم ضد شبهات المشركين الذين قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] .

- حث الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على التمسك بهذا الكتاب المبين وأخذه بقوة لأن شرفهم وعزهم لن يكون إلا به وسيسألون عن قيامهم بحقه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] .

- التحذير من شياطين الإنس والجن التي تصد عن السبيل وتنفر من هذا الذكر الذي هو رحمة وهداية للمؤمنين .

والله تعالى أعلم .

^(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٨/٢٥) .

الباب الثاني

التناسق الموضوعي : دراسة تطبيقية

الفصل الأول

مناسبات السورة الكريمة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : مناسبة اسم سورة الزخرف لموضوعاتها.

المبحث الثاني : مناسبة فاتحة سورة الزخرف لموضوعاتها.

المبحث الثالث : مناسبة فاتحة سورة الزخرف لخاتمتها.

المبحث الأول

مناسبة اسم سورة الزخرف لموضوعاتها

تسمى سور القرآن الكريم بمسميات مأخوذة من صفة غالبية في السورة أو موضوع جامع أو قصة ذكرت فيها واختصت بها كسورة البقرة، أو لفظ افتتحت به كسورة المطففين وسورة الروم أو وصف للسورة كسورة الفاتحة^(١).

قال الزركشي^(٢): " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى " ^(٣).

ونستطيع أن نلخص الأهداف الكبرى والموضوعات الرئيسية التي دارت حولها السورة فيما يأتي:

- ١- إثبات التوحيد لله تعالى .
- ٢- تشریف القرآن الكريم و الدعوة إلى الصراط المستقيم .
- ٣- التحذير من زخرف الدنيا .

ومع اختلاف هذه الموضوعات وما يندرج تحتها من قصص وموضوعات جزئية إلا أن رابطها جميعاً هو اسم الزخرف عنوان السورة وموضوعها الأكبر فسميت به، والزخرف هو الزينة كما

^(١) قال ابن عاشور: " واعلم أن أسماء السور إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة ... وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان ... وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى نحو سورة هود ... وإما بالإضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة " التحرير والتنوير (٩١/١) .

^(٢) تقدمت ترجمته (ص ٦) .

^(٣) البرهان في علوم القرآن (ص ١٩٠) .

تقدم^(١)، وسورة الزخرف بمجملها، وبين طياتها تحذر من الانخداع بالزينة الفانية وترغب في زينة الجنة الدائمة، ونجد موضوعاتها وقصصها مبرزة لهذا المعنى متعلقة به دالة عليه، وتظهر مناسبة هذا الاسم لموضوعات السورة وما يندرج تحتها فيما يلي :

أولاً : مناسبتة لموضوع التوحيد :

١- أن هذا الزخرف الزائف هو سبب تعلق مشركي مكة بالدنيا وانصرافهم عن التوحيد وتمسكهم بالباطل على وضوح بطلانه، لقد كانوا يعترفون بربوبية الله وأنه خالقهم من العدم ويقرون بذلك كل الإقرار، ولكن الزخرف صرفهم عن الإيمان فأعرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم خشية سماع كلام الله والتأثر به، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦]، وهم بذلك يسيرون على نهج السابقين الذين كذبوا من قبلهم برسلم اغتراراً بالزخرف ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف : ٦، ٧].

٢- أن الزخرف هو سبب تقليدهم الباطل و تعلقهم بموروث الآباء والأجداد، فرفضوا الحق واشتروا به عرضاً قليلاً من الدنيا، قال أبو طالب لما حضرته الوفاة : "هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله" ^(٢) فلم تدفع عنه عذاب الله عمومته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصرته له ولا تربيته له بين أولاده فقد آثر الزخرف الواهي على النعيم الباقي، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

(١) ينظر: مبحث (ما ورد لسورة الزخرف من أسماء ص ٢٨).

(٢) من حديث " لما حضرت أبا طالب الوفاة ... " الذي أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (٢٤) (٥٤/١) .

٣- في قصة إبراهيم عليه السلام مثل ناصع للتوحيد الخالص بتطهره من الزخرف إيثاراً للآخرة وربة فيما عند الله، وبراءته من أبيه وقومه رغم علمه بما سيجد منهم من طرد وإبعاد وإيذاء واستهزاء .

ثانياً: مناسبتة لموضوع تشریف القرآن الكريم :

١- إن زخرف الدنيا ولذاتها هو سبب غفلة الغافلين عن كتاب الله، و من غفل عن ذكر الله وشغلته الدنيا عن الدين فستخطفه الشياطين ولن ينفعه اغتراره بهم يوم لا ينفع مال ولا بنون ولن ينفعهم أنهم في العذاب مشتركون ولن يغني عنهم الزخرف من الله شيئاً ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٣٦) .

٢- وإن انغماسهم في الزخرف وانقيادهم خلف بريقه الزائف هو الذي دفعهم إلى إثارة

الشبهة في القرآن الكريم فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ

﴿ الزخرف: ٣١ ﴾، لم يقولوا ذلك إلا لاغترارهم بمعايير الشرف الدنيوية ولكن الحقيقة التي لا يصرونها والتي أعمتهم زخارف الدنيا عنها هي أن محمداً صلى الله عليه وسلم أشرف وأعظم وأكرم من هذين الرجلين العظيمين في نظرهم القاصرة^(١)، ولذلك رد الله عليهم بيان حقيقة

الزخرف بقوله: ﴿ وَرَحِمْتُ رِبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

(١) اختلف في مرادهم بهذين الرجلين فقيل : الوليد بن المغيرة من مكة و عروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، وقيل غير ذلك. قال ابن كثير : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان . تفسير القرآن العظيم (٢٢٦/٧) .

ثالثاً : مناسبتة لموضوع التحذير من الدنيا :

تحذر سورة الزخرف من الانخداع بزخرف الدنيا وتحدث عن الذهب الحقيقي والزينة الحقيقية وتصف هوان الدنيا وزينتها:

١- بين الله سبحانه وتعالى التفاوت بين الناس في المراتب والمستويات لتأكيد أن الدنيا وزخرفها

ليست هي مقياس التفاضل ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

سُخْرِيًّا ۗ وَرَحِمْتُ رَبِّيَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

٣- تصوير الذهب والفضة في سقف بيوت الكافرين ومعارجهم وأبوابهم وسررهم، لبيان أن

هذا الزخرف الفاني لا يزن في الآخرة مثقال ذرة ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۗ وَإِن كُنتُمْ لَمَّا مَتَّعُوا الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] .

قال البقاعي^(١) : " وعلى ذلك دلت تسميتها بالزخرف كما في آيتها من أنه لو أراد أن يعم الكفر جميع الناس لعمهم بسبوغ النعم ولكنه لم يعمهم بذلك، بل فاوت بينهم فأفقر بعضهم وأكثر بؤسهم وضرهم وفرق أمرهم ليسهل ردهم عن الكفر الذي أدتهم إليه طبائعهم ونقائصهم"^(٢).

٤- في عرض قصة موسى وفرعون أكبر مثال على خسران الزخرف الدنيوي الذي أوردى فرعون

(١) تقدمت ترجمته (٢٢) .

(٢) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور (٢/٤٦٦) .

وجنوده، وهو يقول مستهزئاً بموسى عليه السلام وقد أعماه كبره ومملكه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ

هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ

الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿﴾ [الزخرف: ٥٢، ٥٣] ولكن لم ينفعه ملك مصر ولا كنوزها ولا

أنهارها، ترك الزخرف وراءه وذهب لملاقاة ربه وهو عليه غضبان، لم تنقذه أسورة الذهب من

الغرق ولم تدفع عنه جنوده ملك الموت .

٤- في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:

٦٧] بيان أن كل خلة ومحبة بنيت على الزخرف وقامت على أسس دنيوية فهي جميعها مضمحلة زائلة وستنقلب يوم القيامة إلى عداوة، والخلة الباقية هي الخلة في الله والاجتماع على تقواه.

٥- بينت سورة الزخرف أن من صبر عن زخرف الدنيا فاز بالذهب الحقيقي في الجنة ، قال

تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، فذكرت نعيم المتقين

الذين صبروا عن هذا المتاع الزائل، وحال أهل النار المنخدعين بالمظاهر في الدنيا واللاهثين وراءها وشدة شقائهم، حيث يسألون عن الزخرف الذي استمتعوا به وانغمسوا فيه فيقولون :

والله ما ذقنا نعيماً قط^(١). ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

والله تعالى أعلم .

(١) قال صلى الله عليه وسلم: " يؤتى بأنعيم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم

يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب ... الحديث "

أخرجه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه من كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب : يحشر

الكافر على وجهه (٢٨٠٧) (٤/٢١٦٢) .

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة سورة الزخرف لموضوعاتها

إن فواتح السور تمهيد وتقديم لما سوف تتضمنه من موضوعات ومقاصد^(١)، وفاتحة الزخرف تعلقت بمجريات السورة من جوانب كثيرة، وأشارت إشارات ظاهرة وخفية إلى مقاصدها وأغراضها وموضوعاتها الكلية والجزئية .

فحملت فاتحة السورة نقطة الابتداء لافتتاح موضوعاتها وتحقيق أهدافها، والمتأمل في براعة مطلعها سيستضيء به للنظر في بقيتها، وسيجد آيات السورة متماسكة متناسقة " وفصولها مترابطة متساوقة، وبدايتها مرتبطة بنهايتها"^(٢)، وفاتحتها ملائمة لخاتمها .

قال تعالى في افتتاح سورة الزخرف :

﴿ حَمَّ ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ ﴾
 وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ٤ ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ
 كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥ ﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ
 إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٧ ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ ﴾

تحدثت فاتحة سورة الزخرف عن تشريف الكتاب الذي أنزله الله عربياً مبيناً، وجعله في اللوح

(١) دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٥١٥/٢) .

(٢) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزه (٤٨٨/٤) .

المحفوظ علياً حكيماً، يعلو بعلو مكانه المتبعون لنهجه والمستمسكون به، ولا يناله إسراف المسرفين، وتحدثت عن إرسال الرسل في الأمم السابقة وتشابه أقوامهم في رد الدعوة بالاستهزاء والتكذيب، ومضي سنة الله في إهلاكهم، لا محول لسنته ولا مبدل لكلماته .

ويظهر التناسب بين فاتحة السورة وموضوعاتها فيما يلي:

١/ افتتحت سورة الزخرف مقاصدها بالثناء على القرآن الكريم والقسم به إعظاماً لشأنه، ووصفه بالإبانة والعروبة والعلو والحكمة والرحمة، ليتواصل للكتاب المبين التشريف والتعظيم في أثناء السورة بعد الافتتاح به .

فبعد تقرير صفاته العلية كان الدفاع عنه ضد المشركين في قولهم : ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ

كَفَرُونَ ﴿٣٠﴾ وإثارتهم الشبهة فيه بقولهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ

الْقَرَبِيِّنَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ، ثم وصفه بالرحمة ﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] ،

ووضع أشد العقوبة لمن يعرض عن هذا الذكر ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ .

ثم كان الأمر بالاستمسك به والتأكيد بأنه صراط الله المستقيم ودينه القويم وسبيل النجاة

الوحيد ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ .

ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فأخبر رسوله صلى الله

عليه وسلم أن شرفكم وعلوكم من شرف هذا الكتاب العلي الحكيم الذي وضحت لكم

مكانته في صدر السورة.

" وفي ذلك كله نرى كيف أن القرآن في غاية البيان والوضوح ، وفي غاية الفصاحة والبلاغة، وفي غاية العلو في إقامة الحجة، وفي غاية الحكمة في معالجة الباطل وتقرير الحق، فالسورة نموذج كامل على اتصاف القرآن بالخصائص التي ذكرتها بداية السورة " (١) .

٢/ قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦) هو أول حديث السورة عن

توحيد الله تعالى أحد موضوعاتها الرئيسية وأهدافها الكبرى، وذلك ببيان وحدة الرسالات وإنزالها بدين واحد من رب واحد ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعاً من الرسل.

فكانت تلك المقدمة ثم تتابعت آيات السورة على تقرير التوحيد بدلالة ربوبية الله تعالى ابتداء

من قوله ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (٩)

﴿ وتعداد نعمه وآلائه الناطقة بوحدانيته، ثم جاءت قصة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام استشهاداً لإرسال الأنبياء في الأولين بالتوحيد، حيث قال إبراهيم عليه السلام لقومه

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٧] تذكيراً لهم بالخلق أقوى دلائل الوحدانية، وقال موسى

عليه السلام: ﴿ إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٦) وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٤) .

حتى اختتمت السورة بما افتتحت به من تقرير التوحيد وقمع الشرك ونفي الآلهة من دون الله،

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (٨١) ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ

إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] .

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١٣٣/٩) .

٣/ عند قوله تعالى ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨] يفتح الحديث عن موضوع آخر من موضوعات سورة الزخرف وهو حقارة زخرف الدنيا، فالآية تشير إلى ما سيأتي في السورة من أن المظاهر والزخارف لا يقاس بها الفضل ولا يناط بها الشرف، و أن مقاييس القوة والعظمة التي وضعها البشر ليست عند الله بشيء، فلا يغرن قريشا قوتها وسلطانها فإنه لن يعجزه أن يهلك المفسد في الأرض وإن امتد بطشه وتمادى، وأن يصطفي من الناس من يشاء رسولاً وإن اختلف العظيم في نظرهم، فالنجاة والفلاح لأهل الإيمان الذين يعدونهم ضعافاً ويحتقروهم .

وجاءت الآيات بهذا المعنى مفصلاً في إهلاك الله لفرعون وملكه وانتصار موسى على قوته وبطشه واحتقار الذهب والفضة والرياسة والجاه التي يتشبث بها أمثال فرعون الذي قال:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ومشركي قريش الذين قالوا ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١)

٤/ جاء في السورة تفصيل لكلمة ﴿ مُسْرِفِينَ ﴾ (١) في أباطيل قريش وتمثيل بأشد الطغاة إسرافاً في الطغيان وهو فرعون وجنوده .

(١) السرف والإسراف مجاوزة الحد، وأسرف الرجل إذا جاوز الحد، والسرف الخطأ، وأخطأ الشيء وضعه في غير حقه، ومن السرف الإكثار من الذنوب والخطايا والأوزار والآثام. لسان العرب لابن منظور (٣/١٩٩٦)، ١٩٩٧. فكلمة مسرفين عبرت عن تجاوزهم كل الحدود في الكفر والعناد والجدل بالباطل.

فكانت كلمة مسرفين، ثم عددت السورة وجوه هذا الإسراف في الكفر بعد أن أكرمهم الله بإنزال القرآن بلغتهم فقد جعلوا له من عباده جزءاً، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، واعترضوا على حكم الله في اختيار أنبيائه فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، وجادلوا بالباطل في عيسى ابن مريم وقالوا أألهتنا خير أم هو^(١) .

حتى اعتبر الشيخ محمد أبو موسى^(٢) هذه الآية هي الجذر الجامع لكل المعاني المفصلة في السورة ثم قال : " ولو قلت إن سورة الزخرف ليست إلا شرحاً لكلمة مسرفين لم تكن مخطئاً كما لو قلت إنها خارجه من تحت ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لم تكن مخطئاً لأن المسرفين لو عقلوا ما أسرفوا " ^(٣) .

٥/ أجملت فاتحة السورة ما جاء فيها من استهزاء الأقوام برسلمهم وإهلاك الله لهم، فقد استهزأ قوم موسى بموسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ^(٤٧) واستهزأت قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ^(٥٧) فصدقهم الله وعده وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي

^(١) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/ ٢٥٠، ٢٥١) .

^(٢) محمد محمد حسنين أبو موسى، حصل على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة الأزهر عام ١٩٧١م له مؤلفات قيمة في البلاغة والتراكيب والتصوير البياني، أشرف على رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعتي الأزهر وأم القرى. موقع جامعة أم القرى (<http://uqu.edu.sa/page/ar/184454>) .

^(٣) دراسة في أسرار البيان (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠) .

وَعَدَّنَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَهْلَكَهُمْ جُرْيَا عَلٰى سَنَّتِهِ فِي إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِمْ

﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ۝

والله تعالى أعلم .

المبحث الثالث

مناسبة فاتحة سورة الزخرف لخاتمها

كما يظهر الوحدة الكلية والتناسق الموضوعي في سورة الزخرف هو اتصال أولها بآخرها وتناسق فاتحتها مع خاتمها ، ويتبين ذلك فيما يلي :

١- قال تعالى في أول السورة مقررًا الربوبية الكامنة في أعماق المشركين الدالة على الألوهية

المطلقة لله رب العالمين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُوْلُنَّ

خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ ﴿٩﴾ ، ثم أعاد هذا التقرير في ختام السورة مبطلًا شركهم

مسططًا أعدارهم وحججهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُوْلُنَّ اَللّٰهُ ﴿الزخرف: ٨٧﴾ .

٢- بدأت السورة بعد مطلعها بالتنديد بالمشركين لعقيدتهم بكون الملائكة بنات الله في قوله

سبحانه : ﴿ وَجَعَلُوْا الْمَلٰٓئِكَةَ الَّذِيْنَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ اِنْتٰٓءًا ﴿الزخرف: ١٩﴾

وانتهت بمثل ذلك أيضاً، فقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنٰمِنْكُمْ مَّلٰٓئِكَةً فِى الْاَرْضِ

يَخْلُقُوْنَ ﴿٦٠﴾ وهكذا تم الارتباط بين بدايتها ونهايتها مما يدل على ترابط فصولها

ووحدة نزولها ^(١) .

٣- أنكرت بداية السورة على المشركين جعلهم لله الولد في قوله : ﴿ وَجَعَلُوْا لِهٖ مِنْ

عِبَادِهٖ جُزْءًا اِنَّ الْاِنْسَانَ لَكَفُوْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿١٥﴾ أم أخذ مما يخلق بنات

وأصفكم بالبنيين ﴿ ، واختتمت بنفي الولد عن الله سبحانه بأشد ما يكون النفي

^(١) ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٥٣٣/٤) بتصرف .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ (٨١)

٤- ذكر لفظ الصفح في أولها في قوله: ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ

كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ (٥) وذكر في آخرها في قوله ﴿ فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)، والصفح المأمور به هنا هو ترك الجدل بعد البيان والإنذار، أ

ما الصفح المذكور في أول السورة فمنكر وقوعه لأن تذكيرهم بالقرآن مستمر لا ينقطع

لئلا يكون لهم حجة ولا أعداء، يصفح الرسول عنهم ويبقى القرآن فيهم لينذر من

كانحياً ويحق القول على الكافرين^(١).

^(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢٧٤).

الفصل الثاني

موضوعات سورة الزخرف وتناسقها، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: افتتاح السورة بتشريف القرآن الكريم. من آية (١) إلى (١٤).

المبحث الثاني: جدال المشركين ورد شبهاتهم. من الآية (١٥) إلى (٣٥).

المبحث الثالث: عقوبة العاشين عن ذكر الرحمن. من الآية (٣٦) إلى (٤٥).

المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام. من الآية (٤٦) إلى (٥٦).

المبحث الخامس: قصة عيسى عليه السلام. من الآية (٥٧) إلى (٦٦).

المبحث السادس: أحوال الآخرة. من الآية (٦٧) إلى (٨٠).

المبحث السابع: ختام السورة بتقرير التوحيد. من الآية (٨١) إلى (٨٩).

تمهيد

تقرر لنا في المباحث السابقة أن سورة الزخرف تقوم على ثلاثة محاور رئيسية مبثوثة في موضوعاتها، وهذه المحاور هي :

١ / التوحيد ووحدة الرسالات: حيث ابتدأت السورة بذكر إرسال جميع الرسل من قبل إله واحد ومجيئهم برسالة واحدة تدعو إلى توحيدهم وعبادته، وإثبات استقرار التوحيد في خبايا النفوس وأصل الفطرة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ والاستدلال بعدها على وحدانيته بمخلوقاته ومهدده الأرض وإنزاله المطر وخلقته الأزواج وتسخيره الفلك والأنعام، ثم الرد على من جعل له من عباده شريكاً ومن عبد الأصنام والملائكة، ورد استدلالهم الباطل بالمشيئة على الشرك، وذم التقليد المنافي للتوحيد، وضرب الأمثلة على التوحيد الخالص بقصص أولي العزم من الرسل بقصة إبراهيم عليه السلام وبراءته من الشرك، وقصة موسى عليه السلام وإرساله بالتوحيد، وإعلان كلمة التوحيد على لسان عيسى عليه السلام، ثم تنزيه الرحمن عن اتخاذ الولد سبحانه عما يشركون ، ثم اختتام السورة بما بدأت به وإعادة تقرير الربوبية المستلزمة للألوهية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

٢ / تشریف القرآن الكريم ونصره وإعلاء شأنه: فقد افتتحت السورة بجعله مقسماً به ومقسماً عليه، وذلك غاية التعظيم، وذكرت خصائصه وكونه مبيناً فصيحاً وإنزاله عربياً، وكونه عالي المكانة والمكان في اللوح المحفوظ، ثم تتواصل الآيات في تشریفه والذب عنه ورد شبهات المشركين فيه واعتراضهم على تنزيهه على محمد صلى الله عليه وسلم دون عظمائهم ، ثم بينت

السورة عقوبة العاشين عن هذا الذكر الشريف وأمرت بالاستمساك به لأنه صراط الله المستقيم، وأكدت أنه ذكر ورفعة لأتباعه لأنه عند الله علي حكيم .

٣/ نبد زحرف الحياة الدنيا: حيث بينت السورة كيف كان التمتع والترف من أهم أسباب الانشغال والتعامي عن اتباع الحق والرسول المبين، والعشو عن ذكر الله، وأن الله سبحانه هو مقسم الأرزاق والمعاش بين خلقه وهو الذي فاوت بينهم في الدرجات الدنيوية وأن ما عنده خير مما يجمعون، وبينت هوان أعظم زحرف الدنيا على الله و انعدام وزنه في مقابل الآخرة المدخرة للمتقين، وأنه يردي باللاهثين خلفه ويسبب العداوة يوم القيامة بين الأخلاء فيه، والسعادة الدائمة للصابرين عنه المؤثرين لزحرف الجنة، وأنكرت على المغترين به المعترضين على اصطفاء الله لرسوله ثم جاءت بحلقة من قصة موسى وفرعون "يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة وهوانها وهوان فرعون على الله ونهايته التي تنتظر المعترين بمثل ما اعتر به" (١).

وسيظهر لنا في هذا الفصل بإذن الله التحام هذه الموضوعات الكبرى في السورة وتحليلها في آياتها وتناسق الموضوعات الجزئية المندرجة تحتها بحسب تسلسلها في السورة الكريمة ، وهي تتلخص في سبعة مقاطع:

المبحث الأول: افتتاح السورة بتشريف القرآن الكريم . من الآية (١) إلى (١٤) .

المبحث الثاني: جدال المشركين ورد شبهاتهم . من الآية (١٥) إلى (٣٥) .

المبحث الثالث: عقوبة العاشين عن ذكر الرحمن . من الآية (٣٦) إلى (٤٥) .

المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام . من الآية (٤٦) إلى (٥٦) .

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٧٥) .

المبحث الخامس: قصة عيسى عليه السلام . من الآية (٥٧) إلى (٦٦) .

المبحث السادس: أحوال الآخرة . من الآية (٦٧) إلى (٨٠) .

المبحث السابع: ختام السورة بتقرير التوحيد . من الآية (٨١) إلى (٨٩) .

المبحث الأول

(افتتاح السورة بتشريف القرآن الكريم)

من الآية (١) إلى الآية (١٤)

المطلب الأول: الشناء على الكتاب المبين .

قال الله تعالى: ﴿حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

مناسبة فاتحة السورة لخاتمة الشورى:

احتتمت سورة الشورى بالثناء على الكتاب العزيز ووصفه بالروح والنور الذي يهدى به من شاء الله هدايته، فأعقب سبحانه ذلك بالقسم به وعضد الشناء عليه في افتتاح سورة الزخرف التي توصل ذكر صفاته العلية فوصفته بأنه عربي مبين علي حكيم في لوح محفوظ^(١).

(١) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠٠)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٣٧٧/١٧)، جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل الغماري (ص ٩٦)، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢٤٦/٢، ٢٤٧).

وابتدأت سورة الزخرف بقسم عظيم، جعل فيه المقسم به والمقسم عليه واحداً لتأكيد علو مكانته وشأنه، ولتواصل آياتها ذكر خصائصه وبيان منزلته وتشريفه والأمر بالتمسك به^(١)، " وفي ذكر المقسم عليه بعد أن يكون المقسم به قد ألمح إليه ومهد له ودل عليه ما يجعله أكثر تمكناً وتأكيداً"^(٢).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وهذه الآية فيها تعريض بكفر المشركين وعنادهم مع بيان القرآن وعربيته، فهي تخاطب عقولهم لتسرد بعدها السورة مظاهر تناقضهم العقلي فتباغتهم بسؤال بديهي عن خالق السماوات والأرض ثم بحقائق خلق الله التي يستدل بها العقل السليم الى خالقها، ثم تنكر عليهم نسبتهم الولد الى الخالق، لمنافاة ذلك لأبسط قواعد العقل، واختيارهم له ما يكرهون، ثم ادعاؤهم أنوثة الملائكة دون دليل عقلي يشفع لهذا القول المتخبط الخارج عن هوى محض، فالعقل يناقض ما ستورده السورة من إسرافهم وتماديهم في الطغيان والإعراض لأنهم لو عقلوا ما أسرفوا^(٣).

ذلك الضلال الذي يتمسكون به لأجل أهوائهم ويناقضون به عقولهم وفطرتهم تنكره عليهم

هذه الآية كما أنكرته قبلها آية فصلت : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ

ءَايَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا ﴾ [فصلت: ٤٤]، فقد نزل بلغة يعرفونها ويتخاطبون بها ولا تخفى

^(١) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي (ص ١٦١، ١٦٢)، نظم الدرر للبقاعي

(٣٧٧/١٩)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١١٨/٩).

^(٢) أسلوب القسم في القرآن الكريم لعلي الحارثي (٤٣٩/٢).

^(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦١/٢٥)، نحو تفسير موضوعي لمحمد الغزالي (ص ٣٧٩)،

دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٤٩/٢، ٢٥٠).

عليهم أسرارها كيلا يكون لهم حجة بعجمة القرآن، كما قال سبحانه: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴾ [الأنعام: ١٥٦] ^(١).

ويتعضد الشاء على الكتاب المبين ويتوالى له التمجيد والتعظيم ^(٢) فيقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ جملة باستفتاحها بـ (إن) التوكيدية وبوقوعها في جواب القسم وبتقديم الظرفين والتعبير بنون العظمة تصف جلالاً مهيباً وعلواً لا يعلى عليه وتمكن في النفوس منعة القرآن وعزه وارتفاع مكانه، متناهي العلو بديع الإحكام لأنه كلام العلي الحكيم ^(٣)، مكين عنده في أصل الكتاب ^(٤).

كل هذه المقدمات سيتجلى بها المعنى عندما تصل بنا السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ^(٥٤) يخاطب به نبيه صلى الله عليه وسلم وقومه وأمته أن هذا الكتاب العربي المبين العلي الحكيم هو تشريفكم الذي لا عز لكم إلا به ومسؤوليتكم الكبيرة وأمانتكم العظيمة، لأنه بهذا السمو والإحكام، والبيان والإتقان، والهداية والنور ذكر لكم وشأن وأي شأن، فأين أصحاب العقول وأرباب العريية أنى يؤفكون ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٠] ^(٥).

^(١) ينظر: التفسير الحديث لمحمد عزت دروزه (٤/٤٩٠).

^(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/١٦٢).

^(٣) جاءت هاتان الصفتان لله تعالى في آخر الشورى: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

^(٤) ينظر في هذا المعنى: نظم الدرر للبقاعي (٣٨٠/١٩).

^(٥) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٣٨٨).

ويسلي الرحمن الرحيم مصطفاه صلى الله عليه وسلم عن صدود قومه بحكاية حال الأولين التي سيأتي تفاصيلها في قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ليزيده تمسكاً بالذي أوحى إليه وثبت أقدامه على الصراط المستقيم .

فهي تسلية ووعد بالنصر للنبي صلى الله عليه وسلم^(١)، وهي " تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السابقة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء اليهم "^(٢) وهي تخويف لقريش وتذكير لهم

بإهلاك المستهزئين من أسلافهم ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ ليقص عليهم في آخر السورة قصة إهلاك أشد الطغاة بطشاً فرعون الذي هو أشد قوة من قوتهم جعله الله لهم عظة وعبرة، ولهذا قال سبحانه عن فرعون: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ بعد أن قال هنا: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأُولَىٰ ﴾ .

وأعقت (يستهزؤون) بقوله (فأهلكنا) فإهلاك نهاية كل مستهزئ بالله وآياته ورسوله، لأن

السخرية بالدين جريمة الجرائم، والاجتماع على الاستهزاء بالرسول من أعظم الكفر^(٣)، يقول تعالى في آخر السورة عن أخلاء الشرك المتناصرين على الاستهزاء برسوله المتآزرين في الكيد له:

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ثم يقول في عذابهم : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

(١) التحرير والتنوير (١٦٥/٢٥) .

(٢) روح المعاني للألوسي (٦٦/٢٥) .

(٣) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٦٣/٢) .

وسماهم كذلك المجرمين في سورة التوبة: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَايِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ
 ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَآئِفَةً
 بِآثَمِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] .

وستعرض السورة صوراً لهذا الاستهزاء عند قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا
 قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ٥٧ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ٤٧ ﴾ .

ونلمح خلف قوله سبحانه: ﴿ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ مقصداً من أسمى مقاصد السورة وهو أن
 العبرة بالجواهر لا بالمظاهر، وأن قوة البطش التي تمتع بها فرعون لم تكن كافية لنجاته، وأن كثرة
 أموال رجلي القريتين ليست مقياساً لاختيار الرسل، الله أعلم حيث يجعل رسالته .
 وبذلك حمل لنا مطلع السورة المفاتيح للدخول إلى أفيائها والعناوين التي تدرج تحتها تفاصيل
 أجزائها .

المطلب الثاني: بسط أدلة الربوبية لتقرير الوجدانية .

قال الله تعالى:

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ ﴾ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ ﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرِ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ١١ ﴾ كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ١١ ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
 الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ ﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا

نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ
وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

احتج الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة على مشركي قريش بإنزال القرآن الكريم بلغتهم وبكونه مبيناً واضح الألفاظ والمعاني والمقاصد، وذكرهم بأنه أهلك من كان قبلهم ممن هم أشد منهم قوة وأشد بطشاً فلن يعجزه إهلاكهم بتكذيبهم بالرسول، وسيكون علمهم بأخبارهم وعدم اعتبارهم حجة عليهم .

ويتواصل الاحتجاج عليهم في هذه الآيات بإقرارهم الضمني بأن آلهتهم لا تستحق العبادة،

وتشرع السورة في مناقشة عقائدهم الفاسدة بسؤال يهدم وثياتهم وحججهم ﴿١٤﴾ وَلَيْنَ

سَأَلْنَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ .^(١)

فاتحج عليهم بالفطرة التي فرضت هذه الإجابة المناقضة لأقوال وأفعال الشرك التي يقترفونها لأنها تكشف خبايا نفوسهم وتؤكد استقرار الفطرة السليمة في قلوبهم، فهم يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث مع إقرارهم له بالخلق والإيجاد ودعائهم إياه إذا مسهم الضر في البر والبحر، ومن هنا جاء الإفحام والإلزام^(٢).

^(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٦/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/١٦٧)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٢٥).

^(٢) ينظر في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٧/١٩٧)، التفسير الحديث لمحمد دروزه (٤/٤٩٢) .

فكانت ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ مؤسسة لما بعدها ممهدة لما سيأتي من ألوان كفرهم وافتراءاتهم خلال السورة، بينت اعتقادهم وفضحت اعترافهم مؤكدة بالقسم وإعادة الفعل (خلقهن) ليعلم أن كل ما سيقولونه بعد ذلك لم يكن عن إنكار وإنما هو العناد والاستكبار، والكرامية للحق وأهله كما ستذكر آخر السورة ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨] ^(١).

وافتتحت هذه الآية الكلام عن مقصد من مقاصد السورة بتقريرها لتوحيد الربوبية المستقر في النفوس والمستلزم لتوحيد الألوهية، وتحقق السورة ذلك المقصد في آياتها حتى تنتهي بنفس السؤال المقرر لحقيقة التوحيد التي فطر الله الناس عليها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

و (العزیز العليم) صفتان لله تعالى تنافي صفات أصنامهم التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، وفيها إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإقرار الصحيح منهم بعد أن أقروا لله بخلق السماوات والأرض، فهل هذه الآلهة الضعيفة أحق أن تعبد أم العزیز العليم الخالق الغالب لكل شيء ^(٢). قال البقاعي رحمه الله ^(٣): " فقال معبراً بما هو لازم لاعترافهم له سبحانه بالتفرد بالإيجاد لأنه أنسب الأشياء لمقصود السورة وللإبانة التي هي مطلعها: (خلقهن) الذي هو موصوف بأنه

^(١) ينظر في هذا المعنى: البحر المحيط لأبي حيان (٨/٨)، نظم الدرر للبقاعي (٣٨٨/١٩)، الحاوي في التفسير لعبد الرحمن النقاش (٦٩١/ ٢٢٣)، دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٤٨/٢ ، ٢٦٧).
^(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٣٨٩/ ١٩) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٠٩/١٣).
^(٣) تقدمت ترجمته (ص ٢٢).

(العزیز العلیم) أي الذي يلزم المعترف بإسناد هذا الخلق إليه أن يعترف بأنه يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء وأن علمه محيط بكل شيء " (١) .

وبعد الاستدلال بالخلق أبرز دلائل قدرة الله واستحقاقه للألوهية استدلال سبحانه بنعمه التي يرونها رأي العين (٢) وتقوم بها حياتهم ابتداءً من مهد الأرض وتسهيل السبل فيها رحمة بعباده، فقال عز من قائل: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا ﴾ فتهدتوا بها إلى توحيد الله الذي تنطق به الآفاق (٣) .

ثم ذكرهم بأن العزیز العلیم بمقادير الأمور هو وحده الذي أنزل الأمطار بقدر معلوم لنفعهم ونفع أنعامهم وثمارهم فهو خالقهم الذي يعلم مقدار حاجتهم إلى الماء بلا زيادة ولا نقصان (٤)، وإيمانهم بمنزل الماء من السماء يناقض إنكارهم للبعث بعد الموت فهم يرون الأرض الميتة وقد أحيها الله بالمطر في دليل ناصع على قدرته على بعثهم من قبورهم ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴾ .

ثم يمتن سبحانه وتعالى عليهم بخلقه للأزواج مشيراً بذلك إلى انفراده واستغنائه عن صاحبة والولد (٥)، و إلى قوله بعدها: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزحرف: ١٥] .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٨٨/١٩) .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٩/٢٥) .

(٣) قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب: " هو إلفات لهؤلاء المشركين، وهم في موقف الاعتراف الملجئ لهم،

إلى القول بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض - إلفات لهم إلى أن الله الذي خلق السموات

والأرض، هو الله الذي جعل لهم هذه الأرض مهذا " . التفسير القرآني للقرآن (١١٠/١٣) .

(٤) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي (١٩٥/٤) .

(٥) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (١٩٩/٢٧) .

وكل ذلك دلائل على وحدانيته تبارك وتعالى ومظاهر من رحمته بعباده التي بدأت مع بداية السورة حيث رحمهم بإنزال القرآن عربياً مبيناً وعدم إمساكه عنهم مع شدة إعراضهم وكفرهم، وهو تذكير لهم بالإحسان الموجب للإذعان وتفصيل لقدرة (العزيز العليم) التي نطقها لسان حالهم المعترف بهذه النعم^(١).

وهذا التفصيل لآلاء المنعم سبحانه وتعالى استئناف اعتراضي بين قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ وقوله ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(٢).

قال الزمخشري^(٣): "﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين"^(٤).

فكان ذكر هذه النعم العظيمة التي لا يغمرهم بها سوى هذا الإله العظيم، ليرى عظم بختهم وهم يجترئون عليه بما سيأتي من افتراءات، وليظهر بطلان حججهم ويتبين شدة كفرهم وهم يجعلون له ولداً، كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

فالآيات متصلة بما قبلها مقررّة للتوحيد وممهدة لما بعدها وهذا مما جرى عليه أسلوب النظم القرآني^(٥).

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٢٨٩/١٩).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٩/٢٥).

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٤٢).

(٤) الكشاف (٤٣٠/٥).

(٥) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزه (٤٩٢/٤).

إن صاحب هذه الرحمت ومغدق هذه النعم حري بنا أن نشكر فضله ونذكره بكرة وأصيلا
 ونعظمه بقلوبنا ونحمده بألسنتنا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا أُسْتَوِيْتُمْ عَلَيْهِ﴾
 تعريضاً بالمشركين الذين بدلاً من أن يشكروا نعمه ويتفكروا فيها ليصلوا بالتفكر إلى طريق الحق
 أشركوا معه في الألوهية من لم يشاركه في الخلق^(١).

سبحانه تقدس وتنزه عن أقوالهم وعن اتخاذ الولد والشريك، تسبيح شكر لما سبق من تسخير
 وإنعامه، وتسبيح تنزيهه لما سيأتي من نسبة الولد إلى ذاته المقدسة^(٢).

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ : تأكيد لقوله: ﴿فَأُنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾، ووجه
 اتصاله بما قبله: أن الركوب للانتقال فيتذكر بانتقاله النقلة العظمى وهي الانقلاب إلى الله
 تعالى، وأن راكب الدابة والفلك معرض للهلاك فوجب عليه في هذا الموقف تذكر الموت
 والانقلاب إلى خالقه^(٣).

إن هذا القول المؤكد الذي يحصر الرجوع والإنابة إلى رب العالمين هو ما يجب أن يؤمن به كل
 الإيمان ويثق به كل الثقة من كان يؤمن بأن الخلق لله، فإن العقل بالتفكر في كل ما ذكر من
 شواهد الكون يقوده لا محالة إلى أن الذي أحيها لمحبي الموتى .

^(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٢٨/٥)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٥) .

^(٢) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٨٥/٢، ٢٨٦) .

^(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٣٠/٥) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢٠١) ، أنوار التنزيل للبيضاوي
 (٤/١٩٥) ، روح المعاني للألوسي (٦٩/٢٥) .

المبحث الثاني

(جدال المشركين ورد شبهاتهم)

من الآية (١٥) إلى الآية (٣٥)

بعد أن أقام سبحانه الحجّة على وجوب شكره وقرر اعتراف المشركين وإيمان قلوبهم بربوبيته بذكر جوانب من رحمته ونعمته وتسخير ما في الكون لنفعهم تتحدث السورة عما قابلوا به هذا من الكفر^(١)، فتشرح الآيات بعد فاتحة السورة في عرض شركياتهم وإبطالها حيث جعلوا له من عباده ولداً، ثم اختاروا لخالقهم أدنى أصناف الولد، ثم جعلوا ملائكته المقربين إناثاً، ثم احتجوا لكفرهم بمشيئة الله، ثم أعلنوا انقيادهم لدين آبائهم وإعراضهم عن الدين الأهدى والأقوم، وذلك غاية الكفر المبين والظلم الأثيم، ثم اعترضوا على اختيار الله لرسله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ثم أثاروا شبهة في عيسى ابن مريم عليه السلام وقالوا اهتتنا خير أم هو.

المطلب الأول: فرية نسبة الولد إلى الله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ
بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

(١) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٢٨).

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد الاستطراد بذكر نعم العزيز العليم، يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(١) متصلة بجملة ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ﴾ بجبل وثيق كما تقدم، معطوفة عليها^(١).

قدم الله سبحانه في مطلع السورة اعتراف قريش له بالربوبية والتفرد بالخلق في قوله ﴿وَلَيْنَ﴾ ثم جاءت هذه الآيات تحاجهم بالفطرة ومنطقهم فقال سبحانه منكرًا كفرهم و عمق ضلالهم وشدة تناقضهم: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وجعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده ولدًا، ألحقوا به مخلوقًا وهو خالق السماوات والأرض على عظم خلقهما، الغني عن خلقه، المنزه عن الأشباه والأمثال خالق الأزواج كلها^(٢).

و بعد أن ذكرهم في الآيات السابقة بنعمه المستوجبة لذكره وشكره، ذكر نسبتهم إليه الولد مقابلين نعمه بالكفر وإحسانه بالإساءة مع إقرارهم بتلك النعم العظيمة التي لا تستمر حياتهم بدونها، وهذا كفر صريح مبين ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُّبِينٍ﴾^(٣).

ولا يتفق في العقل ولا في الفطرة أن يؤمنوا بالخلق ويجعلوا له البنات إلا لأنهم مقلدون مترفون كما سيأتي، وكفى باعترافهم المتقدم مبطلًا لفرقتهم.

فجملة ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ جعلت مقدمة لهذا الافتراء لتنقضه نقضاً

^(١) ينظر المبحث السابق (ص ٩٨) .

^(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٠١/٢٧)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٥) ، في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٧٤) .

^(٣) ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٢٨) .

صريحاً، وكذلك ينقضه قوله ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وقوله: ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ وقوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ﴾ ينكر عليهم بهذه الإشارات أشد الإنكار أن جعلوا العبد المخلوق جزءاً من خالقه وشبيهاً له، إن الاتخاذ يقتضي الحاجة إلى من اتخذه فبأي عقل يحتاج الخالق إلى مخلوقه (١).

أم اتخذ البنات وهو الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور! (٢)، أم اتخذ البنات وحالككم أنكم إذا بشرتم بهن اسودت وجوهكم وأنفت نفوسكم! ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

أم اتخذ من ينشأ في الحلية ويرى في النعمة ويعجز عن الانتصار عند الانتصار، ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢] وينسبون إلى خالقهم ما يأنفون منه (٣) ويجعلون (لرَّحْمَنِ) ما ينفرون منه ورحمته محيطة بهم وهو صاحب النعم السابق ذكرها التي لم يشاركه أحد في إغداقها عليهم .

المطلب الثاني: فرية تأنيث الملائكة .

قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/١٩)، روح المعاني للألوسي (٦٩/٢٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٦/٢٥)، دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٨٦/٢، ٢٩١).

(٢) كما قال سبحانه في الشورى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩]. ينظر نظم الدرر للبقاعي (٤٠٠/١٧).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٣/٧).

شَهِدْتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن أنكر سبحانه عليهم افتراءهم من حيث نسبتهم إليه الولد أنكره عليهم من حيث تأنيثهم لملائكته المقربين الذين يسبحون بحمده ويقدمون له وهم من هم في مكانتهم عند الله وطاعتهم له لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، جعلوهم أضعف الخلق ووصفهم بالأنوثة الضعيفة وكأن الله أشهدهم خلقهم فعلموا أنهم إناث، وهذا كفر آخر^(١).

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب^(٢): " قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكُنَبَ شَهِدَتْهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ هو معطوف على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ وهو بيان شارح للعباد الذين جعلهم المشركون جزءاً من الله، فهذا الجزء هو الملائكة، وقد جعلوا هؤلاء الملائكة إناثاً"^(٣).

ونلاحظ التعبير بلفظ (جعلوا) الذي مر معنا في الآيات السابقة، تكرر هنا للإشارة إلى كفرهم بصاحب الإنعام وجحودهم في موضع الشكر والاستسلام، جعلوا الملائكة إناثاً كما جعلوا له جزءاً وهو الذي جعل لهم الأرض مهدياً وجعل لهم فيها سبلاً وجعل لهم من الفلك والأنعام ما

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٩/٥)، أنوار التنزيل للبيضاوي (١٩٧/٤).

(٢) عبد الكريم محمود يونس الخطيب، مفكر باحث من أهالي مصر، ولد بالصعيد وتخرج بمدرسة المعلمين بسوهاج، له ما يربو على خمسين كتاباً منها (الحدود في الإسلام) و (التفسير القرآني للقرآن)، وله مقالات كثيرة وندوات، توفي عام ١٤٠٦ هـ . إتمام الأعلام ، د. نزار أباطه، محمد المالح (ص ١٦٤) .

(٣) التفسير القرآني للقرآن (١١٧/١٣) .

يركبون، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة^(١).

ومع أن قلوبهم تسلم لله بالخلق ولكن لم يدفعهم ذلك إلى يسير تفكر يوصلهم إلى الإيمان والإذعان بل ازدادوا مكابرة وأثاروا شبهة ما أرادوا بها إلا الجدل وهم يقولون بمنطقهم الواهي:

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ .

وهذا القول معطوف على جرائم المشركين التي عرضتها الآيات السابقة^(٢)، يدافعون عن عقيدتهم التي استيقنت أنفسهم بطلانها ويبررون عبادتهم للملائكة بتبرير هو في حد ذاته كفر جديد وفرية عظيمة، فهم يحتجون بالمشيئة على الشرك ويزعمون أن الله راض عن أفعالهم، وما لهم بهذا القول من علم ولا سند وليس لهم بعبادة الملائكة وتأنيتهم من دليل يعولون عليه، إن هو إلا كذب وافتراء، ﴿ أَمْ آئِنْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾، وهذه الآية يرد بها سبحانه على ما سبق من ضلالاتهم، فهم لا يملكون لتأييد ادعاءاتهم دليلاً حسيماً ولا خبرياً، وقولهم باطل عقلاً ونقلًا^(٣).

وقد أثنى المولى عز وجل على القرآن الكريم في مطلع السورة بأنه عربي مبين وأنه علي حكيم ثم يقول هنا: ﴿ أَمْ آئِنْتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ وفيه مدح جديد وثناء ضمني " لاقتضائه أن القرآن لا يأتي إلا بالحق الذي يستمسك به " ^(٤) .

ويتواصل الرد عليهم في الآية التالية بفضح حقيقة أقوالهم هذه وسبب استمسكهم بها .

(١) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٢٨٦، ٢٨٧) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٣/١١٨) .

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢٠٧)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨)، روح المعاني للألوسي

(٤) دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٣١٢) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/١٨٦)

المطلب الثالث: تمسك المشركين بضلال آبائهم وعاقبة المقلدين .

قال الله تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُوكَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما انتفى دليلهم العقلي والنقلي أخبر سبحانه عن السبب الحقيقي لإعراضهم وإصرارهم على الكفر^(١) ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ فهم لم يشهدوا خلق الملائكة ولم ينزل عليهم كتاب يؤيدهم بل هو التقليد الذي غرهم وإرث آبائهم الذي أضلهم، فأعلنوها بكل إصرار وتأکید: (وإنا على آثارهم مهتدون) .

وكما واسى الرحمن نبيه صلى الله عليه وسلم في أول السورة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِء يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يواسيه هنا عن هذا العناد الصريح من قومه الذي يؤلم النفس ويجزن القلب بجملة تعترض الحديث لتحمل له المواساة ولقومه الوعيد والتخويف، وتذكره بأن هذا ديدن المكذبين من قبل قومه وأن الله عزيز ذو انتقام، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾^(٢) .

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٧/٢٧) .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٨٨/٢٥) .

وخصّ المترفون بالذكر لأن الترف والتنعم هو سبب اغترارهم واغترار آبائهم بالدنيا وانصرافهم عن النظر الى التقليد^(١) وهو الذي تقصد السورة إلى التحذير والتنفير منه ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ .

لقد حوطلبوا بالعقل في فاتحة السورة ولكنهم قلدوا معطلين عقولهم، فالحق واضح بيّن وفطرة الإيمان محتبئة في نفوسهم ، ولو سئلوا عن خالق السماوات السبع ومن فيهن والأرض ومن فيها ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ولكن تعلقهم بهذا الترف والمتاع هو ما دفعهم إلى نبد الحق والجدال فيه حتى أنهم رفضوا الاستجابة لنداء العقل ونداء الرسول وهو يتنزل معهم في الخطاب بجارة لهم : ﴿أَوْلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ بجمرة إنكار وواو عطف تستصحب الجملة التي قبلها يقول لهم: هل أنتم مقلدون ومتبعون لأبائكم ولو جئتم بدين أهدى وأقوم من دينهم ؟ والجواب واحد على لسان جميع الأمم المكذبة: إنا بما أرسلتم به كافرون. لأن الدافع إليه واحد وهو اتباع الهوى والانسحاق خلف سراب الزخرف^(٢) .

ولذلك كانت عاقبة التقليد وخيمة أليمة ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ﴾ تفكر في عاقبتهم وانظر كيف تحققت سنتنا فيهم ومضى مثل الأولين، فلا يغرنك إمهال قومك ولا يحزنك إعراضهم ، وهو تهديد آخر لقريش بعاقبة الأمم المعذبة بعد تهديد أول السورة^(٣) .

قال الرازي رحمه الله^(٤): " لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول

^(١) أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨) ، نظم الدرر للبقاعي (١٧/٤١١ ، ٤١٢) ، روح المعاني للألوسي

(٧٥/٢٥) .

^(٢) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٥١/٥) روح المعاني للألوسي (٧٥/٢٥) .

^(٣) ينظر المحرر الوجيز (٥١/٥) .

^(٤) تقدمت ترجمته (ص ٥) .

بالتقليد ... إلى أن قال: فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقاً ومعلوم أن ذلك باطل " (١) .

والآية بهذا الوعيد للمقلدين تقرر ما سيأتي مزيد تقريره في آيات السورة من أن التقليد ليس بحجة عند الله وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فالمناصرة والمؤازرة في المعصية لن تنفع أصحابها يوم لا ينفع مال ولا بنون، سيكون أخلاء الكفر يومئذ بعضهم لبعض عدو، ولن ينفعهم أنهم في العذاب مشتركون، ولن ينجو قوم فرعون الذي طغى في الأرض فاستخف قومه فأطاعوه، بل شاركوه في الجحيم وانتقم الله منهم كما انتقم من المقلدين .

والآيات متعلقة بمقاصد السورة من حيث هي موضحة أن القرآن هو أهدى طريق وأحق ما يستمسك به وأولى ما يقتدى به، وأن التقليد يناقض التوحيد وأن التشبث بالدنيا هو سبب الضلال والوبال وأن المتعلقين بالزخرف هم الخاسرون .

المطلب الرابع: براءة إبراهيم عليه السلام من الشرك .

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَهُؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن مر في الآيات السابقة تقليد المشركين وتعصبهم للآباء، جاءت هذه الآيات رادة عليهم

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٢٠٧) .

بأنصع الصور وأروع النماذج على البراءة من الشرك والتحرر من التقليد، تحقيقاً لمقصد السورة الأعظم، فذكرتم بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي رفع القواعد من البيت والذي ينتسبون إليه ويفتخرون به، إذ كيف تقلدون وهذا أبوكم إبراهيم أبو الأنبياء تبرأ من دين أبيه وقومه نابذاً التقليد متمسكاً بالدليل، وإن كنتم ولا بد مقلدين فإن أعظم آبائكم وأشرفهم هو الأحق أن يقلد ويتبع، وإن حقيقة ملته هي التوحيد^(١).

وبعد ذكر إرسال الرسل في الأمم الماضية خصّ إبراهيم عليه السلام بالذكر لعظم منزلته عند الله، ولما ذكر تكذيب الأقوام لرسولهم وانتقام الله منهم وتشبيه حال قريش بحالهم جاءت الآيات ضاربة لهم الأمثلة على ذلك مبتدئة بقصة إبراهيم عليه السلام مذكرة محمداً صلى الله عليه وسلم بمنازلة إبراهيم عليه السلام لقومه، أي فافعل فعله وتجدد جلده^(٢).

واذكر لهم قصة إبراهيم مع أبيه وقومه - الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركوا قومك فكذبوه فانتقمنا منهم كما انتقمنا ممن كذب من قبلهم - وقوله لهم منسلخاً من زخرف الحياة الفانية: إنني بريء مما تعبدون من دون الله، معلناً براءته مما وجد عليه أباه وقومه، وهو الذي وجدوا عليه آباءهم فقلدوهم^(٣).

وخصّ أبو إبراهيم بالذكر مع أنه داخل في قومه اهتماماً بذكره تأكيداً لخالص براءة إبراهيم عليه السلام من شرك قومه بل أبيه أقرب الناس إليه، ليقمع موقفه تمسك قريش بالتقليد

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢٠٨)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨)، روح المعاني للألوسي

(٢٥/٧٦)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٣٠) .

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٥١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/١٩١) .

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٠/٥٧٥) .

ويسقط حجتهم^(١) .

ثم استثنى خالقه وفاطره والمنعم عليه، إلا الذي فطرني وفطركم فهو الأحق أن يعبد^(٢)، وفيه إشارة إلى اعترافهم السابق بفاطر السماوات والأرض .

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِين ﴾ يرد على قولهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾^(٣) وكفرهم بالرسول الذي دعاهم إلى أهدى من دين آبائهم^(٤)، فالله هو الهادي إلى طريق النجاة وهو الذي ذكرت فاتحة السورة اعتراف المشركين له بالخلق وأنه الذي جعل لهم السبل في الأرض ليهتدوا بها في سيرهم ويهتدوا بها إلى توحيد الإله الحق، ولكنهم آثروا الاهتداء بآبائهم واتبعوهم بغير هدى من الله، فأعلن لهم إبراهيم عليه السلام بكل ثقة أن الهداية من الله وحده وأنه سيهديه وذريته من بعده، ولهذا قال سبحانه بعدها :

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الكلمة الباقية هي قوله إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني جارية مجرى لا إله إلا الله كلمة التوحيد والبراءة من الشرك التي أعلنها في قومه و أوصى بها ذريته وجعلها قدوة للموحدين من بعده، فليس للمشركين حجة في الرغبة عن ملة إبراهيم وتقليد آبائهم، ولا نجاة إلا لمن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً^(٤) .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٢/٢٥) .

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٨/٢٧) .

(٣) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٣٢٩/٢) .

(٤) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٥٢/٥)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٩/٢٧) .

و قال يوسف عليه السلام متبرئاً من ملة الشرك: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧ ، ٣٨] .

فهذا هو الاتباع لملة إبراهيم عليه السلام، اتباع على حق ومستند لا على باطل و أهواء، اهتداءً بدليل ونور لا بأعين معصوبة وعقول عن التفكير محجوبة .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ رجاء أن يعودوا إلى الحق وكأنهم كانوا عليه، إشعاراً بأنه الأصل وأنه الفطرة المستقرة في نفوسهم^(١) كما قدمت السورة ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾﴾ وأن كل ذلك الخروج عنه ما هو إلا عناد وكبر .

ثم في تخلص بديع وانتقال سلس عاد بنا السياق بحرف الإضراب (بل)^(٢) إلى الحديث عن كفار قريش بعد أن ضرب لهم المثل بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي رجا رجوع عقبه واستقامتهم من بعده، فيقول تعالى بل تمتعت هؤلاء وآباءهم وأغرقتهم في النعمة فاغترتوا بطول الإمهال وخيبتوا رجاء إبراهيم وعبدوا الأصنام، وانشغلوا عن التوحيد بالترف وهو من أكبر دوافع التقليد، وألهاهم التمتع عن التفكير حتى جاءهم الحق ورسول مبين^(٣) .

قال ابن عطية^(٤): " (بل تمتعت) كلام متصل بما قبله لأنه لما قال في عقبه وكانت قريش من عقبه اقتضى الكلام أن يقدر فيه لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل تمتعتهم " ^(٥) .

^(١) . ينظر في هذا المعنى: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧١/٩) .

^(٢) . (بل) هنا للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث .

^(٣) . ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٧ / ٢٠٩) ، روح المعاني للألوسي (٧٧/٢٥) .

^(٤) تقدمت ترجمته (ص ٤٥) .

^(٥) . المحرر الوجيز (٥٢/٥) .

والحق هو الإسلام والقرآن الذي يتواصل الثناء عليه بعد أن افتتحت به السورة والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم^(١).

وجاءت كلمة الحق بالتعريف وكلمة الرسول بالتنكير لأن الحق عال قوي ظاهر وعلو الرسول وظهوره تبع له، وشرفه وشرف قومه من شرف القرآن، فهي تردنا إلى قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ وتستشرف إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ۝٥ ﴾ وَسَوْفَ يُسْأَلُونَ ﴿ [الزخرف: ٤٤] ^(٢).

مناسبة قصة إبراهيم عليه السلام للسورة:

يتبين لنا مما سبق أن سورة الزخرف خصت ذكر هذا الجزء من قصة إبراهيم عليه السلام وهو براءته من شرك قومه لعدة مناسبات :

- ١- لتناسبه مع ما سبقه من الآيات وتناسقه مع مجريات السورة الناقضة للتقليد الداعية إلى التوحيد، فأعقب قولهم: وإنا على آثارتهم مهتدون، مباشرة بقول إبراهيم عليه السلام: إني براء مما تعبدون، لإسقاطه وإبطاله^(٣).
- ٢- لأنه يبرز مقصود السورة بإعلان كلمة التوحيد وبيان وحدة الرسالات فقد كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً موحداً، وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا من عقب إبراهيم وكلاهما رسول من رب العالمين.
- ٣- كما أنه يبرز مقصودها ببيان هوان الدنيا وزخرفها، فقد فر إبراهيم عليه السلام إلى ربه وإلى ما أعد له عنده من النعيم المقيم وصبر في سبيل ذلك على إيذاء قومه فصار إماماً للمتقين ومثالاً للذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة.

^(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٥٧٩/٢٠)، التحرير والتنوير (١٩٧/٢٥).

^(٢) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٣٣٦/٢).

^(٣) المرجع السابق (٢٤٩/٢).

المطلب الخامس: شبهة المشركين في تنزيل القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهْمَرِيقَسْمُونَ رَحِمَتْ رَبِّكَ لِمَنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

تواصل السورة إعلاء شأن القرآن العظيم وترد عنه شبه المشركين فيها هم بعد أن طعنوا في القرآن ووصفوه بالسحر بقولهم: ﴿ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠ ﴾ يطعنون فيمن جاء به، صلوات الله وسلامه عليه، يقولون هذا سحر فإن كان حقاً فهلا نزل على رجل عظيم من عظمائنا، استهزاء منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو من تفصيل آية فاتحة السورة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ ﴾ (١) .

وهذا الاستدراك على الله والاستهزاء برسوله من صور إسرافهم وألوان كفرهم التي لازالت السورة تستمر في سردها انطلاقاً من قوله: ﴿ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٢١ ﴾ (٢) فلم يكتف مشركوا مكة بكل ما قدموا من كفر وافتراء وجرأة على الله بل جمعوا إلى جرائمهم التدخل في ما هو من اختصاص الخالق الرازق المدبر لا من اختصاص المخلوقين العجزة الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة على تدبير أبسط أمور معاشهم .

أشركوا معه أوثانهم وهو خلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، وجعلوا الملائكة إناثاً بغير

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٠/٥٨٠) ، نظم الدرر للبقاعي (١٧/٤١٩) .

(٢) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٢٥٠) .

مستند، وقسموا له البنات على انتقاصهم لهن، واحتجوا لكفرهم بالمشيئة، ثم جاءوا يعترضون على تقسيم النبوة وكأن الله أوكل الله إليهم تقسيم الرحمات وتوزيع الأرزاق .

وعلى نسق الردود الدامغة التي عاجلهم القرآن بها ﴿ أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَانَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ (١٦) ، ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] ، ﴿ أَمْ أُنِيتُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (٢١) يرد عليهم سبحانه باستفهام إنكار وتقرير وتجهيل: ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؟ كيف يقارنون أنفسهم بالذي قسم بينهم معيشتهم وأرزاقهم والذي (نزل من السماء ماءً بقدر) ليكفي حاجتهم بلا زيادة ولا نقصان، أفلا يقسم النبوة وهو المقسم لدقائق أمور حياتهم ! إنهم لم يقسموا الحطام فكيف يقسمون الرحمات، وكيف لهم أن يتولوا أمر اختيار النبوة وهم لم يتولوا ما هو أدنى من ذلك (١).

وقوله تعالى: ﴿ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ فيه مدح جديد للقرآن الكريم وتعظيم له، رداً على قولهم: ﴿ هَذَا سِحْرٌ ﴾، وهذه الرحمة من خصائص الكتاب المبين التي تقصد السورة إلى الإشادة بها، ومن الرحمة ما ذكرته فاتحة السورة من كونه مبيناً واضح الألفاظ والمعاني، وجعله عربياً ليعقلوه وعدم إمساكه عن المنذرين رغم إسرافهم وإعراضهم، وهو رحمة لأنه هداية يهدي به الله من يشاء: ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٤] (٢) .

ثم أخبرت الآيات أن تفاوت الدرجات بين البشر سنة أمضاها الله تعالى في عباده ليسخر بعضهم لبعض ولحكمته البالغة وعلمه القديم، وأن رحمته خير مما يجمعونه من زخرف الدنيا،

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعي (١٧ / ٤٢٣) .

(٢) ينظر: دراسة في أسرار البيان (٢ / ٣٤١، ٣٤٢) .

لتطمئن بذلك قلوب الفقراء المسخرين^(١) ويسلم الناس بأن أرزاقهم مكتوبة عند العلي القدير لا يرزقون رزقاً ولا يمنعون إلا بإذنه، مما يدفع العبد إلى القناعة والرضا كيلا يحزن على ما فاته من رزق ولا يتعلق بمتاع الدنيا ويلهث وراءه، وهذا من أعظم ما تهدف إليه السورة ومن أبرز أغراضها التي تتضح في هذه الآيات بوضع القيم الحقيقية للشرف الحقيقي وإسقاط القيم الدنيوية من القوة أو المال أو الجاه، إذ لم ينفع عظيمي قريش رياستهما وسيادتهما ولم تؤهلهما لشرف النبوة، ولم ينفع الأولين قوتهم وبطشهم ولم تدفع عنهم العذاب كما تقدم ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨]، ولن ينفع الكفرة كنوزهم كما سيأتي، فليست درجات الدنيا هي المقياس عند الله وإنما هي ابتلاء وتمحيص ورحمة ربك خير مما يجمعون .

قال سيد قطب^(٢): " ولعله سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجالاً ميزته الكبرى الخلق ، وهو من طبيعة هذه الدعوة ، وسمته البارزة التجرّد وهو من حقيقة هذه الدعوة، ولم يختره زعيم قبيلة ولا رئيس عشيرة ولا صاحب جاه ولا صاحب ثراء ، كيلا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء " (٣) .

المطلب السادس: حقارة الزخرف الدنيوي .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ

(١) ينظر المرجع السابق (٣٤٧/٢) .

(٢) سيد بن قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري، انضم إلى الإخوان المسلمين فسجن معهم وعكف في سجنه على تأليف الكتب إلى أن أعدم عام ١٣٨٧ هـ ، من مؤلفاته (في ظلال القرآن) (التصوير الفني في القرآن) (مشاهد القيامة في القرآن) . الأعلام للزركلي (٣/١٤٧) .

(٣) في ظلال القرآن (٣١٨٦/٥) .

سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٣٤﴾
وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

قال الشيخ محمد أبو موسى^(١): " هذه الآيات لو أردت أن تجعل لها عنواناً فلن تجد أنسب من الجملة التي قبلها وهي ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٣٢)، لأن كل هذه الجمل تؤكد معنى أن رحمة ربك خير مما يكدون ويركضون لتحصيله " ^(٢) .

فالآيات تحمل معان تصب في معنى هذه الآية وتختتم بآية تطابقها ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأن رحمة الله للمتقين بدخول الجنة خير مما يجمع أهل الدنيا، وهي متممة للمقاصد التي جاءت بها الآيات السابقة، حيث يتواصل الرد على شبهة كفار قريش بتحقير القيم الدنيوية التي دفعتهم إلى إثارة تلك الشبهة^(٣)، وتتواصل الآيات في ذم الزخرف ونقض اعتقاد الناس أن المال هو أساس التفاضل بصورة هي أشد ما تكون في بيان هوان الدنيا على الله وانعدام وزنها في مقابل الآخرة .

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ

فِضَّةٍ﴾ لولا أن يجتمع الناس على حب الدنيا والسعي في طلبها ولولا أن يعتقد الجهلة ان إعطاء المال دليل المحبة، لجعلها منقادة طائعة لمن يكفر بالرحمن، لمن يحمل في قلبه أسوأ صفة

(١) تقدمت ترجمته (ص ٨٢) .

(٢) دراسة في أسرار البيان (٣٤٧/٢) .

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٣ / ٥)، مفاتيح الغيب للرازي (٢١٠ / ٢٧) .

وأبشع كفر وهو كفر الخالق المنعم، هانت الدنيا على الله حتى أعطاهما هذا الكافر الفاحش الكفر لولا حكمته التي اقتضت غير ذلك^(١)، بل بلغ من هوان الذهب والفضة أن يجعل لهم منها سقفاً ومعارج وأبواباً وسرراً، غاية التصغير للمال الذي حكموا لأجله بعظمة رجلي القريتين وأحقيتهما بالنبوة .

فالآية تهدم ما سبق من قول قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٣١) وما سيأتي من قول فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف : ٥٣]، وهي تصور التنعم في أقوى صورته وأجمل بمرجه ثم تشير إليه إشارة احتقار وازدراء بحرف الإشارة البعيد (ذلك) ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ .

ومقابلها جاءت ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بما فيها من عظمة وقرب تشريفاً للآخرة وأهل الفلاح فيها^(٢) الذين تمسكوا بالكتاب الذي قال الله فيه في أول السورة: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٤) فعظم شأنهم وعلا قدرهم بعظمة شأنه وعلو قدره .

والمعاني التي حملتها هذه الآيات هي محور السورة ومقصد من مقاصدها الرئيسية وسبب تسميتها بالزخرف، وهي سر ثبات إبراهيم عليه السلام رغم كل ما لاقاه من أذى قومه إيماناً بهذا النعيم الموعود به أهل الصبر عن الزخرف، الخالص لهم دون غيرهم .

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٦/٧)، دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢٤٩/٢) .

(٢) ينظر دراسة في أسرار البيان (٣٥٣/٢) .

المبحث الثالث

(عاقبة العاشين عن ذكر الرحمن)

من الآية (٣٦) إلى الآية (٤٥)

المطلب الأول: عاقبة المعرض عن ذكر الله .

قال الله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ۝ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

١ - بعد عرض ذلك الزخرف والنعيم الدنيوي من سقف الذهب والفضة، والمعارج والأبواب والسرر ، والتأكيد بأنه زائل لا يرن عند الله جناح بعوضة، يزداد التنفير منه في هذه الآيات والتحذير من الاغترار به عن الصراط المستقيم وبيان أنه يورد المهالك ويورث الندامة ^(١) .

قال سيد قطب ^(٢): " ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله، وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله، ولا يشير إلى فلاح، وأن الآخرة عند ربك للمتقين، استطراد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك

^(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي (٢٧ / ٢١٣) ، نظم الدرر للبقاعي (١٧ / ٤٢٧) .

^(٢) تقدمت ترجمته (ص ١١٤) .

الأعراض وهم عمي عن ذكر الله منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين " (١) .

٢- وبعد أن بين تعالى فضل القرآن وخصائصه وعظمته وفند عقائد الكافرين ورد الشبهة في كتابه وبين أن تنزيله على محمد صلى الله عليه وسلم واصطفاءه للرسالة هو العظمة والرحمة وليس يقاس الرجال بالرياسة والمال، يتواصل التشريف للقرآن بذكر عاقبة المعرضين عنه ومآل من استهوته الشياطين وغرته بالدنيا عن الدين واشتغل بهذا المتاع عن ذكر الله المبين المتقدم فضله وشأنه في فاتحة السورة (٢) .

قال القرطبي (٣):

"وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ [الزخرف: ٥] أي نواصل لكم الذكر فمن يعيش عن ذلك الذكر بالأعراض عنه الى أقاويل المضلين وأباطيلهم نقيض له شيطاناً" (٤) .

وقال الطاهر ابن عاشور (٥) عند تفسير هذه الآية :

"الضلال ينمي ويتولد في النفوس ويتمكن منها مرة بعد مرة حتى يصير طبعاً على القلب وأكنة فيه وختماً عليه، ولا يضعف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار، فمن زناد التكبير تنقذ شرارات نور فرما أضاءت فصادفت قوة نور الحق وهن الشيطان فتغلب القوة الملكية على القوة الشيطانية فيفريق صاحبها من نومة ضلاله، وقد أشار إلى ذلك

(١) في ظلال القرآن (٥/٣١٨٩) .

(٢) ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٤٠) .

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٤٠) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٤٧) .

(٥) تقدمت ترجمته (ص ٢٦) .

قوله: ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فذكر الرحمن هو القرآن العظيم المسمى بالذكر في قوله أول السورة: ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ ﴾، وإضافته لاسم الرحمن تشريف وثناء، وتذكير برحمة الله ونعمته لما جعله عربياً مبيناً ليعقلوه ولم يمسكه عنهم باستهزائهم وكفرهم ، ولفت إلى استحقاق أشد العقاب لمن أغضب من صفته الرحمة الواسعة، وكفر بهذه النعمة العظيمة وأعرض عن كلام رحمن يتقلب في نعمه ليل نهار (٢) (٣) .

والآية تسبر الأغوار وتبين سبب العناد والإصرار والتكذيب والصد عن الرسل، وعاقبة الإعراض عن ذكر الرحمن في الدنيا والآخرة ، فالمعرض الذي لا ينتفع بالذكر و لا يتعظ بمواعظه ولا ياتمر بأوامره ولا ينتهي عند حدوده، يسلط عليه شيطان مطرود من رحمة الله لا يفارقه بل يلازمه كملازمة القيض (٤) للبيض فيزداد بعداً عن الرحمة وتزداد الغشاوة على عينيه والصمم في أذنيه، ويحمله في الدنيا على اقتراف المعاصي ويدخل معه النار يوم القيامة (٥) .

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٠٨) .

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٢٥/٨٠) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢٠٩) ، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢/٣٥٩، ٣٦٠، ٣٩٨) .

(٣) ومن البلاغة والدقة كذلك في إضافة لفظ الذكر إلى صفة الرحمة دون غيرها أنه سبحانه رحمان وسعت رحمته كل شيء يعلم بما يدور في أنفس هؤلاء الغافلين عن ذكره وتسع رحمته أخطاءهم وعنادهم، وهم في هذه الحال بأشد الحاجة إلى رحمة الله عز وجل، ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَتَأْتِبَنِي إِني أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مریم: ٤٥] . وجوه البيان في أمثال القرآن لسامية رزق (ص ٤٦٧ ، ٤٦٨) بتصرف .

(٤) القيض هو قشرة البيضة فهي ملازمة وملاصقة لها. ينظر: لسان العرب (٥/٣٧٩٤) .

(٥) ينظر في هذا المعنى: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٧/٤٢٨)، الأساس في التفسير

لسعيد حوى (٩/٥١٤١) .

وكلمة يصدونهم بقوة حروفها تشعر بقوة الدفع والإبعاد عن السبيل لأنه الطريق الحق الذي تدعو إليه الفطرة السليمة ^(١) كما قدمت فاتحة السورة ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾، وهو التوحيد الذي ترمي إليه في أعظم مقاصدها وهو الصراط المستقيم الذي تتوالى آياتها في الحث على الاستمسك به، حيث سيأتي أمر الله تعالى لرسوله بالثبات عليه ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وأمره صلى الله عليه وسلم لأمته باتباعه ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وعلى لسان عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

وبعد أن لازمهم القرناء يأمرهم بالمنكر وينهونهم عن المعروف تبرأوا منهم يوم القيامة

وجحدوهم وخذلوهم وقال الشيطان ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ

قَبْلُ ﴿[إبراهيم: ٢٢] وكانوا لهم أعداء، كما سيأتي عند قوله سبحانه ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

ومثل المعرض عن الذكر أمام ربه ورأى قرينه وقد تبينت له الحقائق فقال قولاً تغشاه الحسرة

والألم، ويملؤه الندم حيث لا ينفع الندم: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّسِقَ الْقَرِينَ

﴿٢٨﴾ ويومئذ لن ينفعهم اجتماعهم في الدنيا على المعاصي ولن يخفف عنهم اشتراكهم في

نار جهنم شيئاً من عذابها .

والمقصود من حكاية حال العاشي وقرينه في السورة :

١ / " تفضيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على

عمل سيء العاقبة ، وهذا من قبل قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

^(١) ينظر: دراسة في أسرار البيان (٣٦٥/٢) .

الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ " (١).

٢/ تحقير المال والجاه وبيان أنهما يجعلان الإنسان كالأعشى عن ذكر الله ويوجبان كمال النقصان والحرمان في الدنيا والآخرة، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَاتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣١﴾ قالوا كلاماً فاسداً وشبهة باطلة (٢).

المطلب الثاني: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتته على الصراط المستقيم .

قال الله تعالى:

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَرْ بِيكَ
فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ
بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾
وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أن وصف له حال المعرضين عن الذكر وشدة إغواء القرناء لهم فيقول مواساة له و تبيساً من رجوعهم إلى السبيل وتأكيداً لكون الهداية بيد الله وحده: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣).

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٣/٢٥).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢١٤/٢٧، ٢١٥) بتصريف يسير .

(٣) ينظر في هذا المعنى: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٦/٢٥).

شبههم بالصم والعمي لأن حواسهم لم تنفعهم^(١)، فإن عمى البصيرة وعناد الكفر وضلال التقليد وتزيين الشياطين تكالبت على قلوبهم فطبع عليها حتى أصبحوا لا يبصرون نور الهداية ولا يصل إليهم صوت الحق. وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

ولما بين في الآيات السابقة عاقبة العشو عن ذكر الرحمن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالتمسك به بقوة ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو أمر صريح بعد أن أشار ضمناً إلى وجوب التمسك بالكتاب في قوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿١١﴾.

" ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين بين أيضاً تأثيره في منافع الدنيا فقال ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء " ^(٢).

ويستمر بهذه الآية الثناء على القرآن الكريم فهو ذكر ورفعة للمتمسكين به كما هو خزي للمعرضين عنه العاشين عن تدبره، لأنه عند الله علي حكيم كما قال سبحانه في فاتحة السورة: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ ﴿٤﴾ ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ مجاز بليغ عن النظر في أديان الرسل وشرائعهم تبكيتاً للمشركين وإنكاراً لأقوالهم

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦/٥).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢١٦/٢٧).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢١/٢٥)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١٤٢/٩).

الضالة المتخبطة ورداً لشبهاتهم عندما قالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢]
 وقالوا ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٠] فإن الرحمن الذي يعلمون انفراده بالخلق لم
 يأمر أن تعبد آلهة من دونه ولم يرض بذلك ولم يأت رسول آباءهم بغير التوحيد الذي هو دين
 الله منذ أقدم رسول، وهو صراط الله المستقيم، والذي تقرره السورة في أعظم أهدافها، كما
 سلف في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي
 ﴾ وكما سيأتي في قصة موسى عليه السلام الذي جاء بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم
 وعيسى عليه السلام الذي قال لقومه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
 ﴾ ﴿٦٤﴾ (١).

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤٣٧/١٧، ٤٣٨)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٣١٩١/٥)،
 التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٢/٢٥).

المبحث الرابع

(قصة موسى عليه السلام)

من الآية (٤٦) إلى الآية (٥٦)

المطلب الأول: كفر آل فرعون بالآيات البينات .

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّحَابُ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ۝

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن خاطب الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ۝ بما في هذا الخطاب من

الإنكار لشرك المشركين والتأكيد لوحدة دعوة الرسل، جاءه بقصة من أخبار الأولين قصة

موسى عليه السلام مع فرعون تأكيداً لهذا المعنى وتسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً للمؤمنين وتحذيراً للمشركين من مصير كمصير الأولين^(١).

ولهذا خصت سورة الزخرف من قصة موسى عليه السلام جوانب مقتطفة منتقاة بحكمة بالغة لأنها تحقق مقاصد السورة وتتوافق مع مجرياتها وترتبط بموضوعاتها.

وكما ابتداءً نقض أقوال قريش باستنطاقهم إيمان قلوبهم بالربوبية ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، ابتداءً موسى عليه السلام دعوته بتذكير قومه بأنه ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه والذي أوجدهم من العدم وخلق لهم مافي الأرض جميعاً، الأمر الذي علمته نفوسهم يقيناً كما علمته نفوس قريش ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٣). [النمل: ١٤]، ولكنهم استهزأوا بآيات موسى كما استهزأت قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم^(٤) فعذبهم الله بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، لعلهم يرجعون عن غيهم ويعودون إلى رشدهم، حتى أنهم لما ذاقوا العذاب واشتد عليهم لجأوا إلى موسى عليه السلام الذي سخرها منه ليدعو الله لهم بالفرج، ونادوه نداء تعظيم لما شهدوا من معجزاته ومن مكانه عند ربه ﴿يَتَأْتِيهِ السَّحَابُ أَدْعُنَا رَبِّكَ﴾ إيقاناً منهم بقدره الله

(١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٩٤).

(٢) قال عبد الكريم الخطيب: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ هو رجوع لصدى هذه الضحكات الهازئة الساخرة التي كان المشركون يلقون بها النبي صلى الله عليه وسلم، كلما طلع عليهم بآية من آيات الله، كما يقول الله تعالى في آية تالية من هذه السورة: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضحون بالضحك الهازئ الساخر". التفسير القرآني للقرآن (١٣/١٤١).

التي رأوها في آياته البينات، وإيماناً خفياً بنبوة موسى عليه السلام^(١).

وعدوه بالاهتداء إن كشف عنهم العذاب، ولكنهم نقضوا عهودهم وازدادوا كفراً، وأظهر العذاب دواخل نفوسهم المعترفة بربوبية الله وكشف تناقضهم ثم عادوا إلى غيهم وتمادوا ووضعوا الكفر والمحااجة موضع الإيمان والتسليم .

المطلب الثاني: إهلاك فرعون وملكه مثلاً للآخرين .

قال الله تعالى:

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فَوْسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

عندما هزت قوم فرعون الآيات العظيمة وذاقوا العذاب ثم أنجاهم الله بسبب دعاء موسى وبدأت النفوس تميل إلى تصديق موسى عليه السلام خشية فرعون ضياع ملكه ونادى في قومه

^(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٠/٧)، الكشاف للزمخشري (٤٤٨/٥)، نظم الدرر للبقاعي (٤٤١/١٧).

عائداً بهم من الهدى إلى الخسران المبين: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أفلا تبصرون ما أنا فيه من الملك العظيم لتحكموا بأن الحق في اتباعي لا في اتباع موسى ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ علامة لصدق نبوته كعلامة ملوك الدنيا ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْتَرَيْنِ﴾ يشهدون بتصديقه، ما قالها إلا تعجيزاً وجدلاً وطعناً في نبوة موسى عليه السلام، كاعتراض مشركي قريش السابق ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّن الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١)، تشابحت قلوبهم (١).

حكم فرعون على موسى عليه السلام بالمهانة كما حكمت قريش بعظمة رجلي القريتين مستندين في أحكامهم إلى حب المتاع الحقيق، الذي سينتهي بالمغترين به إلى العذاب والنكال تاركين وراءهم أسورة الذهب والسقف والسرر والأبواب والمعارج، و لن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به.

أما موسى عليه السلام الذي وصفه فرعون بأنه (مهين ولا يكاد يبين) ومن آمن معه فسوف تصف لنا خاتمة السورة ما ادخر الرحمن لهم من الذهب الحقيقي في دار النعيم يطاف عليهم فيها ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ .

وقد نجح فرعون في استخفاف قومه مستغلاً تعلقهم بالزخرف آخذاً بعقولهم الخفيفة وقلوبهم

الضعيفة فصددهم عن الصراط المستقيم ليسلك بهم طريق الضلال ملبساً عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] .

(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/٢٠٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٢٣١، ٢٣٢) .

جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، ولا يعذرون بتضليل فرعون لهم وأنهم على آثاره مهتدون .

وكان سبب انقيادهم وسهولة خداعهم أنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ اعتادوا الكفر وألفوه وخالط قلوبهم^(١)، تعاملوا عن الحق فازدادوا ضلالاً واتبعوا فرعون وقلدوه، فكانت إبادتهم بجملة

﴿أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ التي مرت معنا في عاقبة من قلدوا آباءهم وتجاهلوا نداء فطرتهم ولم

يحترموا عقولهم ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، ولذلك أكد

سبحانه الإغراق بقوله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هلكوا جميعاً ضالهم ومضلهم تابعهم ومتبوعهم وكانوا

عبرة وآية وسلفاً ومثلاً للآخرين، لقريش وغيرهم ممن غرّتهم الحياة الدنيا، وهو مثل الأولين

المذكور في أول السورة ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأُولَىٰ﴾^(٢) .

وعلى هذا المعنى دل قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ

أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾^(٣٩) . فآيات السورة كلها لا ينفصل بعضها عن بعض، بل هي

متناسقة ومتماسكة لدعم مقصودها من الترفع عن زخرف الدنيا وخلتها واتباع أهل الوجاهة

فيها ، فراراً إلى الله وإلى جناته .

مناسبة قصة موسى عليه السلام للسورة:

يتبين لنا مما سبق أن المراد من سوق هذا الجزء من قصة موسى عليه السلام في هذا الموضع

^(١) ينظر دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢/٤٢٨) .

^(٢) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥/٥١٥٣، ٥١٥٤) .

ليس عين القصة ^(١) بل المناسبة بين أحداثها وأحداث السورة والعلاقة بينها وبين بقية أجزائها، ومن مناسبة ذكر القصة هنا ما يأتي :

١- تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم عن اعتراض قومه على نبوته بقولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، وتقرير جواب شبهة قريش في الاعتراض على إرسال من لا يملك المال والجاه الى ملوك القوم وسادتهم، وهي عين ما قاله فرعون الذي اعتر بما اعترت به قريش وتشابحت قيمه مع قيمهم ، وذكر إغراقه وإهلاكه ليتعظ هؤلاء، فالآيات ضرب مثل للرسول صلى الله عليه وسلم بموسى عليه السلام ولقريش بفرعون وملئه ، وهذا يبرز مقصود السورة ببيانه لحقارة الزخرف واضمحلاله وزواله ^(٢).

٢- بعد قوله سبحانه في أول السورة : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ وتهديد قريش بالانتقام في قوله : ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ جاءهم بمثل على انتقامه وقص عليهم قصة إهلاك لفرعون الذي هو أشد بطشا من بطشهم ^(٣) .

قال الطاهر ابن عاشور ^(٤) : " والمقصود من هذه القصة هو قوله فيها ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإن المراد بالآخرين المكذبون صناديد قريش " ^(٥) .

^(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢١٨) .

^(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٥٨) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢١٨)، أنوار التنزيل للبيضاوي

(٤/٢٠٢)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٩٢) .

^(٣) ينظر دراسة في أسرار البيان للدكتور محمد أبو موسى (٢/٤٣٦) .

^(٤) تقدمت ترجمته (ص ٢٦) .

^(٥) التحرير والتنوير (٢٥/٢٢٤) .

٣- بعد قوله سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَسَأَلَ مَنْ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ زُرِّئِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلهَةً يُعْبُدُونَ ﴾ ذكرت قصة

موسى عليه السلام استشهاداً بوحدة دعوة الأنبياء على توحيد الله تعالى تحقيقاً لمقصد السورة (١).

٤- تحدثت السورة عن المسرفين العادين وعرضت وجوهاً للإسراف من كفار مكة فكانت قصة فرعون أكبر مثال على الإسراف في الكفر والكبر والاستهزاء بالرسول.

قال الشيخ محمد أبو موسى (٢): " و ضع كلمة ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ بإزاء كلمة ﴿

يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ التي في رأس السورة، فإذا تركت رأس السورة وراجعت صورها ومعانيها وجدت

هذا الجزء من قصة موسى عليه السلام جزءاً منتخباً ومنتقى ليتلاءم مع مكونات السورة" (٣).

(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٢/٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٣/٢٥) الأساس في

التفسير لسعيد حوى (٥١٥٣/٥، ٥١٥٤).

(٢) تقدمت ترجمته (٨٢).

(٣) دراسة في أسرار البيان (٤٠٢/٢).

المبحث الخامس

(قصة عيسى عليه السلام)

من الآية (٥٧) إلى الآية (٦٦)

المطلب الأول: تقرير عبودية عيسى والملائكة عليهم السلام .

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْتِ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

عودة من قصة موسى عليه السلام التي ضرب بها المثل لمشركي قريش يتواصل الرد على شبهاتهم

والحديث عن ضلالاتهم التي ابتدأت عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾،

فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ .

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب^(١): " مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن قصة موسى مع فرعون انتهت بتلك النهاية التي كانت مثلاً فيما تنتهي إليه طريق الضالين، المكذبين بآيات الله وبرسل الله، وإن في هذا المثل لعبرة لمعتبر، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وفي عيسى بن مريم مثل بارز، لمن يتعقل الأمثال، وينتفع بها، ففي ميلاده هذا الميلاد العجيب، من غير أب، مثل شاهد على قدرة الله، وعلى أنه سبحانه يخلق ما يشاء، على غير مثال سبق من تلك المخلوقات التي تجري على طريق الأسباب الظاهرة لنا " ^(٢)

ووقعت هذه الآيات موقعها الذي لا يناسبها غيره في ربطها بين قصة موسى وعيسى عليهما السلام، فجاءت بعد استخفاف فرعون قومه لتشير إلى قصة ابن الزبيرى^(٣) الذي استخف قريشاً بضربه مثلاً بعيسى عليه السلام فصدوا وضحكوا وفرحوا ظناً منهم أنه قد غلب الرسول صلى الله عليه وسلم بحجته^(٤).

وذلك أنه لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] احتج عليه ابن الزبيرى بأن قريشاً تعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً والنصارى تعبد عيسى ابن مريم، فصاح القوم وضجوا معجبين بحجته وقالوا: إن كان هؤلاء في النار فهل آهتنا خير من عيسى ابن مريم؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

(١) تقدمت ترجمته (ص ١٠٣) .

(٢) التفسير القرآني (١٤٨/١٣) .

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٦٤) .

(٤) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٥/٤) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٦/٢٥)، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٤٤٥/٢) .

، ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(١).

يجادلون عن كفرهم بحجج واهنة كما جادلوا عنه بقولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾^(٢)، ولا يقدمون هذه الاحتجاجات والأمثلة والشبهات طلباً للحق بل جدلاً بالباطل وتشويشاً وخصومة وماهم بذلك من دليل ولا علم^(٣)، فنفوسهم قد كشف مطلع السورة ما فيها من معرفة الإله الحق ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) ولكنهم يحاولون إطفاء نور الحق بالصخب و التعامي والجدل والله متم نوره ولو كره الكافرون.

و يرى الله تعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام مما اقترفه أتباعه من بعده وتحقق الآيات هدف السورة بإعلان التوحيد لله رب العالمين وبيان حقيقة عيسى عليه السلام بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾^(٥) حصر ضمير عيسى في العبودية ليقطع كل صوت يقول بألوهيته، فما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة والمعجزات الباهرة التي لا قدرة له على شيء منها إلا بإذن الله، ولخلق آدم عليه السلام أعجب وأغرب من خلق عيسى، خلقه بغير سبب ليجعله لبني إسرائيل عبرة وآية ومثلاً واضحاً يدل على قدرة الله، فاختلّفوا فيه وألهوه وقالوا ولد الله وإنهم لكاذبون^(٦).

وكما أبطل سبحانه بنوة وألوهية عيسى عليه السلام يبطل بنوة وألوهية الملائكة الذين وصفهم في أول السورة بأنهم (عباد الرحمن) تأكيداً للتوحيد ورداً على ما في الآيات السابقة من تأليه

^(١) ينظر تخريج الحديث (ص ٦٤).

^(٢) ينظر الكشاف للزمخشري (٤٥١/٥)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٦/٤).

^(٣) ينظر الكشاف للزمخشري (٤٥٢/٥)، نظم الدرر للبقاعي (٤٥٧/١٧، ٤٥٨)، في ظلال القرآن

لسيد قطب (٣١٧٥/٥).

المشركين للملائكة وتأنيتهم لهم ، فقال: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ**

﴿ إن استعظمتم خلق عيسى بغير أب فالقدرة الإلهية تقتضي أكثر من ذلك، لو شاء لجعل بذلكم أو لجعل من نسلكم في الارض ملائكة يعمرونها ويخلف بعضهم بعضاً، فإمكانية التوليد في الملائكة دلالة على مخلوقيتهم^(١).

إن ملائكة الله مقربون عنده في السماء مكرمون، عباده وجنده، رفعهم الله وكرمهم كما رفع عيسى إليه تشريفاً منه وفضلاً، وليس هذا المكان العالي والرفع لعيسى والملائكة يعني البنوة ولا الشراكة تعالى الله عن ذلك^(٢)، وما إحياء عيسى عليه السلام للموتى إلا بإذن الله وقدره الله ليثبت الإيمان بالبعث في قلب من كان له قلب، وسينزل آخر الزمان ليكون علامة على أن الساعة اقتربت والنهاية أزفت، وعاقبة الذين اختلفوا فيه أوشكت، وسيموت كما نموت، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله^(٣). هذا هو التوحيد السليم والصراط المستقيم الذي تأخذ السورة بيدنا لتتبعه ولا نخيد عنه، وهو

صراط الله الذي في آخر الشورى ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴿٥٢﴾ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا**

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ الشورى: ٥٢ ، ٥٣ ﴾^(٤)، يحثنا سبحانه على اتباعه ﴿ **وَاتَّبِعُونِ**

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ويثبتنا بأمرنا بالاستمسك به ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى**

^(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٦١/٥)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٦/٤) ، التحرير والتنوير لابن

عاشور (٢٤١/٢٥ ، ٢٤٢) ، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١٥٥/٩) .

^(٢) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤١/٢٥ ، ٢٤٢) .

^(٣) قال محمد عزت دروزة: "والآيات متصلة بسابقتها اتصال تعقيب وتدعيم، وبسبيل تقرير قدرة الله تعالى

على ما هو معجز ومستحيل في نظر الناس مثل خلقه عيسى بدون أب وقيام الساعة التي لا يجوز الممارسة فيها لأن كتاب الله يخبر بها". التفسير الحديث (٥١٩/٤) .

^(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٣٦/١٣) .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٢﴾ ويجذرنا من صد الشياطين عن هذا الطريق الحق ﴿٦٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿٦٤﴾ ويكرر التحذير هنا ﴿٦٥﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ ثم سيؤكدده على لسان عيسى عليه السلام ﴿٦٧﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾ .

المطلب الثاني: إعلان التوحيد على لسان عيسى عليه السلام .

قال الله تعالى:

﴿٦٩﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد الاستشهاد لقوله تعالى: ﴿٦٩﴾ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴿٧٠﴾ بقصة موسى عليه السلام أعقبت بقصة عيسى عليه السلام وكشف حقيقة دعوته لتصب معها في غرض واحد وهو رفع شعار التوحيد الخالص لله وحده وإقامة الحجة على المشركين وتقرير أنه تعالى لم يرض من دونه إلهاً أو شريكاً^(١).

(١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٩٦)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٦٦)، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢/٤٤٦) .

فآيات الثلاث السابقة لهذه الآيات وهي من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد جاءت استطرادية واعتراضية بين قصتي موسى وعيسى عليهما السلام لتقرير قدرة الله تعالى ودعوة الناس إلى السير في الطريق القويم وعدم المماراة في الساعة وعدم اتباع الشيطان والتحذير من عداوته لهم، وجاءت قصة عيسى عليه السلام متصلة بالسياق، وتمة للرد الذي تضمنته هذه الآيات الثلاث من حيث تقرير حقيقة شخصية عيسى وعبوديته لله تعالى (١).

وكما في قصة موسى عليه السلام نجد آيات سورة الزخرف تكتفي في عرض الموضوعات وفي الاختيار من مجريات القصص بما يحقق مقصود السورة ويوصل إلى الهدف المسوقة إليه القصة. والاستدلال بالربوبية على استحقاق الألوهية من أهم أهداف سورة الزخرف حيث ابتدأت به في قوله ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩) ثم في قول إبراهيم لأبيه وقومه ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿ وقول موسى عليه السلام ﴿إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦).

فأعلن سبحانه وتعالى في هذه الآيات عبودية عيسى عليه السلام على لسانه ، ليبرئه من افتراءاتهم ويرسخ حقيقة ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ في اعتقادهم، وتسقط كل حجة لهم بعد إعلان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يذكرهم بربوبية الله متبرئاً من شركهم وإفكهم ليكون أدعى لهم إلى الإيمان وأقوم للحجة، لأن الذي يخلق ويرزق هو الأحق أن يعبد،

(١) ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤/٥٢١).

وجميع خلقه فقراء إليه مشتركون في عبادته ^(١).

هذه العبودية لله وحده صراط مستقيم ودعوة غراء لا تتغير ولا تبدل في الأمم ولا تختلف فيها الرسل ، وهذا هو أسمى مقاصد السورة رفع راية التوحيد لله تعالى وتنزيهه عن الولد وتقرير عبودية من سواه ونفي ألوهية عيسى والملائكة الذين أنعم الله عليهم وهم خلق من خلقه، لاحول لهم ولا قوة إلا بحوله وقوته .

وبعد تلك الكلمات المثبتة على الصراط توعد الذين حادوا عنه واختلفوا في عيسى عليه السلام الذي جاءهم مبيناً وهادياً فجعلوه إلهاً، جاءهم بالبينات والحكمة فجانبوا الحكمة وظلموا أنفسهم ووضعوا الأمور في غير مواضعها وصرفوا العبادة لغير مستحقها والله لا يحب الظالمين ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ للذين اختلفوا في عيسى ابن مريم ولكل شرك مر بنا في السورة، ولهذا قال (للذين ظلموا) ولم يقل فويل لهم، ليعم بالوعيد كفار قريش وآل فرعون وكل مشرك ظالم ، فالظلم صفتهم المشتركة هو سبب عذابهم وويلاتهم ^(٢).

هل ينتظر هؤلاء إلا أن يدهمهم الموت أوتفاجئهم الساعة التي قال لهم الله ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ ^(٣) فتبهتهم فلا يستطيعون ردها.

فجاءت هذه الآية تربط السورة بخاتمها وهي تنتقل بنا إلى أحوال الآخرة والحديث عن نهاية طريق الظلم ووصف عذاب الزائعين عن صراط الله .

^(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٤/١٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٧/٧)، في

ظلال القرآن لسيد قطب (٣١٩٩/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٨/٢٥) .

^(٢) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٧/٤) ، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٤٦٩/٢ ، ٤٧٠) .

^(٣) ينظر دراسة في أسرار البيان (٤٧٤/٢) .

المبحث السادس

(أحوال الآخرة)

من الآية (٦٧) إلى الآية (٨٠)

المطلب الأول: نعيم المتقين في الجنات .

قال الله تعالى:

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ
وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ^ط وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ^ط وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد ذكر الساعة واليوم الأليم تصف الآيات هذا اليوم وأحوال الساعة وجزاء الفريقين فيها،

ومآل أصحاب الطريقين، إما جنة ونعيم وإما عذاب وجحيم^(١).

^(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢٢٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٢/٢٥).

وابتدأت الآيات بكلمة ﴿ الْأَخِلَاءُ ﴾ لما مر في السورة من تناصر أهل الباطل واغترارهم بخلتهم واجتماعهم على بغض الحق والاستهزاء بالرسول والمكر لهم، طانين أن اجتماعهم عزة لهم وقوة^(١).

وآية الأخلاء من الآيات المحورية في السورة إذ تحمل أحد أظهر معانيها (لا يدوم ولا ينفذ إلا ما كان لله) وهو الذي دل عليه قبلها قوله تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرْيُنَ ﴾^(٢٨) إلى قوله: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرُ

فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾^(٣٩) فجاءت في هذا الموضوع تأكيداً لما سبقها من وصف حال

العاشي وقربنه ولتناسبها مع حال المشركين في تناصرهم على رسول الله بقولهم ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ وصحبهم في حضوره صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمَّا

ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ متبعين خطى قوم فرعون الذين ضحكوا

من رسولهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ، فيندر الله الظالمين في هذه الآية

ويحذرهم من الاعتزاز بكثرتهم وتعليق آمالهم على هذه الخلة، لأن خلة الدنيا ستخذل أصحابها

وتنقلب في الآخرة خزيًا وعداوة وسيلعن بعضهم بعضا ويقول بعضهم لبعض: ياليت بيني

وبينك بعد المشركين، وسيكونون أعداء كما لو لم يكونوا من قبل أخلاء ، قال الله تعالى: ﴿

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ

^(١) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان (٢/٤٧٧).

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَيْكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥] ^(١).

واستثنى من هذه العداوة (المتقين)، المستجيبون لأمره بالتقوى المطيعون لرسوله المتبعون لسبيله، المتخالون في الدنيا على تقواه الموعودون بحسن العاقبة وخالص النعيم ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢٥) الذين طلقوا الدنيا وزخرفها واشتروا الآخرة، الذين اتقوا النار فوقاهم ربهم عذاب الجحيم وناداهم في ذلك اليوم المهول نداء تشريف عظيم ^(٢).

يناديهم الرحمن ويقربهم بالإضافة إلى نفسه المقدسة ويشرفهم بوصف العبودية ويقبل عليهم بالخطاب تشريفاً وتكريماً: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ آمنهم يوم الفرع الأكبر جزاء تقواهم وخوفهم من عصيانه في الدنيا فلا خوف عليهم مما هو آت ولا حزن ولا حسرة على ما فات ^(٣).

ويتنوع السياق في إكرام أهل النعيم بين الغيبة والخطاب مبالغة في المدح وجمعاً بين الحفاوة والمباهاة بهم وبين الاهتمام بخطابهم والإقبال عليهم، فعاد إلى ندائهم بعد ذكر صفاتهم زيادة تشريف وفضل أن ادخلوا الجنة تكرمون فيها غاية الإكرام أنتم و أخلاؤكم جمعهم الله إليكم

^(١) ينظر في هذا المعنى: التفسير العظيم لابن كثير (٢٣٧/٧)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٥/٢٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٢/٢٥).

^(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٣٩/٢٠)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٨/٤)، نظم الدرر للبقاعي (٤٧٦/١٧).

^(٣) ينظر جامع البيان للطبري (٦٤١/٢٠)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٦/٢٧)، دراسة في أسرار البيان (٤٧٩/٢، ٤٨٠).

كما فرق بين أخلاء الشرك ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١] ^(١).

وفي أجمل صور هذا الإكرام والإنعام يطاف على المتقين بصحاف وأكواب الذهب، ليتنعموا بالزخرف الذي صبروا عليه ابتغاء وجه الله، فأعطوه في دار البقاء، وتركوه في دار الفناء للذين

اغتروا به فقالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ وقالوا ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ

عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾، عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا وادخرت الآخرة للمتقين

خالصة دائمة، لهم في جنة الله ما يشتهون خالدين فيها لا يتحولون ولا يزولون .

ولهذا خص التنعم بالذهب مع دخوله في ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين لأنه موضوع السورة وأشد الزخرف الذي يفتتن به ضعاف الإيمان في الدنيا، تحذر الآية منه ليعطى في الجنة لمن صبر واتقى، وهذا غاية سورة الزخرف ومنشودها.

وهكذا بينت الآيات جزاء المتقين الذين افتتح بهم هنا وصف النعيم (إلا المتقين)، وختم بهم

الوعد هناك ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) ، حشرنا الرحمن في زمرةهم ^(٢).

المطلب الثاني: عذاب المجرمين في الدركات .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ^(٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ^(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

^(١) ينظر دراسة في أسرار البيان للدكتور محمد أبو موسى (٢/٤٨٤، ٤٨٥).

^(٢) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى (٢/٤٨٦).

وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِرُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكرت الآيات أخلاء التقوى وما أعد لهم من النعيم المقيم عادت إلى أخلاء الكفر الذين قدمت لهم الويل لتصف شقاءهم وبؤسهم ، وهم الفريق المقابل للذين آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين ^(١).

وسماهم الله (المجرمين) عنوانا لكل ما أسلفوا من جرائم عرضتها السورة ^(٢)، ووصفاً جامعاً لكل من قدم شركاً وجرمًا وإفكاً وظلماً، لكل كفار أثيم وطاغية عنيد، للذين جاءوا شيئاً إذا و اقترفوا آثاماً تخر منها الجبال هدا، من اتخذ مع الله إلهاً آخر ومن جعل له من عباده ولدا، من استهزأ بالله وآياته ورسوله، ومن افترى على الله الكذب، ومن عارضوا حكم الله ومن اختلفوا في عيسى ابن مريم وحرفوا الإنجيل والتوراة، جميعهم إلى جهنم يحشرون وفي العذاب خالدون، يزدادون ويلا ويدعون ثبورا عندما يعلن فيهم الخلود كما نودي أهل الجنة ^{﴿﴾} وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿﴾ فازدادوا جبورا.

فالمجرمون يائسون من الخلاص منها لا يخفف عنهم من عذابها، لأنهم كانوا معتادين على الظلم

^(١) ينظر في هذا المعنى: مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/٢٢٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٧/٢٥) .

^(٢) ينظر دراسة في أسرار البيان (٤٩٩/٢).

مطبوعين على الفسق والإثم، أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وهو خلقهم، ووضعوا العبادة في غير مستحقها فظلموا أنفسهم أعظم الظلم، وما كان الله ليظلمهم مثقال ذرة سبحانه فقد أعذرهم بإرسال الرسل بالآيات البينات وأنذرهم وخوفهم وأمهلهم وذكرهم ولم يرفع عنهم الذكر رحمة بهم، فاستحبوا العمى على الهدى (١).

قال البقاعي (٢) في مناسبة قوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ للسياق: " ولما كان ربما ظن من لا بصيرة له أن هذا العذاب أكبر وأكثر مما يستحقونه، أجاب سبحانه بقوله ليزيد عذابهم برجوعهم باللائمة على نفوسهم ووقوعهم في مناديات الندامات: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾" (٣).

ونادوا وهم في دركات جهنم بصوت خزي وذل يستشفعون بخازن النار مالك عليه السلام ليسأل الله لهم الموت، فراراً مما يلاقونه من ويلات العذاب ﴿ يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ لم يجدوا في أنفسهم القدرة على نداء ربهم الذي كفروا به وحاربوه بالآثام، ولكن لا شفاعة اليوم فقد أعطوا الشفاعة في دار العمل حين أخذ آل فرعون بالعذاب ليرجعوا ويتوبوا فرفع عنهم بشفاعة موسى عليه السلام فلم يرجعوا حيث أمكنهم الرجوع، ولم يعتبر بحالهم من بعدهم حيث أمكنهم الاعتبار، لم يستجيبوا لقول الله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ولم يقدموا لأنفسهم، فالיום لا رجاء ولا رجوع (٤).

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٦٤/٥)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٧/٢٧)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٩/٤).

(٢) تقدمت ترجمته (ص ٢٢).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٨٢/١٧).

(٤) ينظر دراسة في أسرار البيان للدكتور محمد أبو موسى (٥٠١/٢).

وينادون ليزدادوا حسرة وعذاباً ﴿ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ ﴾ ثم ذكر العلة في مكثهم وخلودهم (لقد جئناكم بالحق) وبيناه كفلق الصبح لئلا يكون لكم حجة بعد الرسل، فأزلنا قرآنا عربيا مبيناً وجاءكم الحق ورسول مبين، وأرسلنا موسى بآيات بينات كل آية أكبر من أختها، وجاءكم عيسى بالبينات والحكمة وأعلن فيكم عبوديته لرب العالمين، وأخذناكم بالعذاب لعلكم ترجعون، وذكرناكم بأبيكم إبراهيم لتقتدوا به وتبرأوا من الشرك وجعلنا كلمة التوحيد باقية في عقبه لعلهم يرجعون، ولكنكم كرهتم الحق وأهله وقتلتم بذرته في صدوركم لتعلقكم بزخرف الدنيا وخوفكم فوات شهواتها^(١).

أولا يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنه مطلع على قلوبهم وما فيها من كراهية الحق وإقرارها لله بالخلق، ويعلم مكرهم وكيدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، سيخزيهم في الدنيا والآخرة وسيبطل مكائدهم ويعذبهم يوم بدر كما ستفصح سورة الدخان ﴿ يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦]، إن كادوا لنبيه فهو أعز منتقم، وإن مكروا فهو خير الماكرين، سيحصي عليهم أعمالهم و﴿ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُم وَيَسْأَلُونَ ﴾^(٢).

^(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٨/٢٧)، التفسير العظيم لابن كثير (٢٤١/٧)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٢٠٢/٥).

^(٢) ينظر: الكشاف للزحاشي (٤٥٨/٥)، التفسير العظيم لابن كثير (٢٤١/٧).

المبحث السابع

(ختام السورة بتقرير التوحيد)

من الآية (٨١) إلى الآية (٨٩)

المطلب الأول: تنزيه الله تعالى عن الولد.

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۖ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۗ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۗ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۗ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۗ ﴿٨٥﴾ ۝

مناسبة الآيات لما قبلها:

قامت سورة الزخرف على تقرير التوحيد وتنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك وتفصيل وثنيات

كفار قريش وقمعها بالحق الذي لا مرية فيه، ابتداء بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ

جُزْءًا ۗ ﴿ [الزخرف: ١٥]، وقوله ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ

إِنشَاءً ۗ ﴿ [الزخرف: ١٩] وضرب المثل ببراءة إبراهيم عليها السلام من برائن الشرك ﴿ إِلَّا الَّذِي

فَطَرَنِي ۗ ﴿ [الزخرف: ٢٧] ، ومروراً بقوله ﴿ أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۗ ﴿ ﴿٤٥﴾ ثم

قصة موسى وعيسى عليهما السلام اللتان سيقتا للغرض ذاته وصبتا في المجرى نفسه، قبل أن تعلن على لسان عيسى عليه السلام الذي أشركوه مع الله ونسبوه إليه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾^(١).

وتلخص خاتمة السورة ما وضعت من مبادئ وتثبت ماقررت من حقائق، فترد على ماسبق من جعلهم لله الولد والملائكة وتنزه الله تعالى بعبارة بليغة تقطع باستحالة كون الولد لله سبحانه ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول لهم صلى الله عليه وسلم بحجارة لهم وإقامة الحجّة عليهم : لو كان لله ولد فأنا أعرفكم بالله وأنا أول من سيعبده على أن له ولد وأول من سيؤمن بوجود الولد تعالى الله عما يقولون، ما كان للرحمن ولد وأنا أول الشاهدين بذلك، وإن كان في زعمكم له ولد فأنا أول المتبرئين من قولكم وأنا أول الموحدین مخلصاً له الدين^(٢).

سبحان رب السماوات والأرض وبارئهن الذي اعترفوا له بخلقهن عن صاحبة والولد، لقد تبين لهم الحق وآمنوا بخالق الخلق وهددوا بهلاك سلفهم وخوفوا العذاب الأليم فذرهم في خوضهم بالباطل ليستكثروا من الخطايا حتى يلاقوا ربهم وهو عليهم غضبان، ويجدوا ما وعدهم ربهم

حقاً، ويدوقوا الخزي في الدنيا بقتلهم يوم بدر ﴿يَوْمَ نَبِّطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان: ١٦]

^(١) ينظر: دراسة في أسرار البيان (٥١٥/٢، ٥٢٥).

^(٢) ينظر: الكشف للزمخشري (٤٥٨/٥، ٤٥٩)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢١٠/٤)، نظم الدرر للبقاعي (٤٨٩/١٧)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١٦٧/٩)، جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل الغماري (ص ٩٧).

ولعذاب الآخرة أخزى ^(١).

هو سبحانه المستحق للعبادة وكل من دونه خاضع لأمره مقهور بقهره، إله ملائكة السماء وإله

عيسى وإله كل من عبدوا سواه، هو الذي قال وقوله الحق: ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلهَةً

يُعْبَدُونَ﴾ عنده وحده علم الساعة وإليه يرد أمرها لا يجليها لوقتها إلهو، إليه يرجعون

فينبئون بما عملوا ويحاسبون على ما أسرفوا، وفي هذه الآية: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ إعادة تقرير للبعث بعد قوله في أول السورة: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿١١﴾﴾

وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

وفيها إبطال لألوهية كل من عبّد من دون الله في الأرض أو في السماء. ^(٢)

قال ابن عاشور ^(٣): " ولما كان قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفيداً التصرف في

هذه العوالم مدة وجودها ووجود ما بينها أردفه بقوله ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴾ للدلالة على أن له مع ملك العوالم الفانية ملك العوالم الباقية، وأنه المتصرف في تلك العوالم

بما فيها بالتنعيم والتعذيب، فكان قوله ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ توطئة لقوله ﴿وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ وإدماجاً لإثبات البعث " ^(٤) .

^(١) ينظر في هذا المعنى: التفسير العظيم لابن كثير (٢٤٣/٧)، دراسة في أسرار البيان لمحمد أبو موسى

(٢/٥٢٠، ٥٢١) .

^(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٦٠/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٧/٢٥) .

^(٣) تقدمت ترجمته (ص ٢٦) .

^(٤) التحرير والتنوير (٢٦٩/٢٥) .

المطلب الثاني : الأمر بالصفح والمواذعة.

قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتَ يُؤْفِكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ .

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن أثبت لنفسه سبحانه ملك السماوات والأرض وملك ما بينهما وملك العرش وملك الساعة وقيامها نفى عن آلهتهم أن يكون لهم ملك أي شيء حتى الشفاعة لهم عند الله لا يملكونها إلا بإذن الله، ولو كان هذا المدعو من دون الله ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، يرد الله عليهم بذلك ادعاءهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وقولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣] ^(١).

قال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ

هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] .

كذب ظنهم وخاب سعيهم وانقطع كل حبل علقوه بالذين من دونه، لا يستطيعون لهم شيئاً فهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ولا يشهدون إلا بالحق الذي علمه المشركون يقيناً ثم كرهوه وحاربوه، سيكونون شهوداً عليهم متبرئين من عبادتهم. قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

^(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٥/٤٦٠) .

ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨١﴾ [مریم: ٨١-]

[٨٢] . وقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] .

وبعد تلك التنزيهات العظيمة للألوهية تنتهي مجادلة أهل الشرك بقوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ العزيز العليم الواحد العظيم الإله في السماء وفي الأرض ولوكره المشركون، ليرتبط مقطع السورة بمطلعها وتختتم بما بدأت به من تقرير الإيمان الفطري المستقر في عقائدهم الشاهد على ضلالهم المبين وفساد أقوالهم وأن الله لم يظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين^(١).

فعجباً لإعراضهم ودعائهم من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً وكفرهم بمن يملك الخلق والأمر وإليه المصير، كيف يصرفون وقد غلبت حججهم وتبينت حقيقتهم وأين يذهبون وقد جعله قرآناً عربياً لعلهم يعقلون .

إنما دأبهم دأب الأولين من أشباههم الذين كذبوا الرسل والذين توعدتهم بداية السورة ، إصرار على الكفر وتبئيس للرسل، ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وعناد ومحاجة بلغت بالنبي صلى الله عليه وسلم من الحزن واليأس كل مبلغ فاشتكى إلى ربه انقطاع رجائه من إيمانهم ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيواسيه الرحمن ويثبته ويأمره أن أعرض عنهم ولا تجادلهم ووكّل أمرهم إلى خالقهم الذي جحدوه، سينجز فيهم وعيده وسيعلي دينه وينصر كتابه، وسيعلمون عاقبة كفرهم.

(١) ينظر في هذا المعنى: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للبقاعي (ص ٩٨)، نظم الدرر للبقاعي (١٧/٤٩٧، ٤٩٨)، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٦٨، ٥١٦٩، ٥١٧٧) .

وهو تهديد كبير وإنذار جديد بعد قوله: ﴿ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ " (١) .

مناسبة الفاصلة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ لآيتها وللسورة :

"بعد ذكر المحاجات والأدلة على وحدانية الله تعالى، وتفردة في ملكوت هذا الكون الفسيح وإثبات صدق الوحي والنبوة، وبعد إبطال حجج ومزاعم وافتراءات أهل الزيغ والضلال جاءت الفاصلة الكريمة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تذيلاً للسورة كلها وهي تحمل معاني البشارة بالنصر والظفر والتمكين لدين الله تعالى وأتباعه والتهديد والوعيد لأعدائه.. ولقد أبرزت الفاصلة الكريمة في نهاية السورة الإعجاز البياني في اختيارها وجعلها في موضعها من السياق القرآني، حيث جاءت متناسبة مع كل ما سبق ذكره في ثنايا السورة الكريمة " (٢).

وهكذا ختمت الزخرف بهذه الآية بعد ما مر فيها من الحجاج واللجاج والخرص بغير علم والتقليد بغير دليل، لينتهي دور الرسول في البلاغ والتبيين، فمن أضل ممن يجادل في الحق بعد ما تبين ومن أضل ممن هو في شقاق بعيد .

والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥٠١/١٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٦/٢٥ ، ٢٧٢)،

الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥١٦٩/٩) .

(٢) المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها لمحمد ديب (ص ١٤٢) .

الفصل الثالث

تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي

نستضيء بالفصل السابق - الذي عرفنا فيه وجوه تناسق الموضوعات في السورة ومناسبة مجيء بعضها في إثر بعض - في تفسير سورة الزخرف تفسيراً إجمالياً بنظرة كلية شاملة تظهر تناسق أجزائها وانتظام كل آية مع سابقتها ولاحققتها، واجتماعها تحت سقف واحد، ليظهر جمال النظم القرآني ووحدة موضوعات سورة الزخرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿حَم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾
 وَإِنَّمَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن
 كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ
 إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾
 وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
 الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَتَسْتَوْأُ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
 نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ
 ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ

﴿١٥﴾ أَمْ أُتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَانِكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ
 لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيبَةِ وَهُوَ فِي
 الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا
 خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ
 بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَانَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
 مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
 وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا
 عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُو جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿

اتصلت فاتحة سورة الزخرف بخاتمة الشورى اتصالاً ظاهراً كما مر معنا، حيث اختتم الله تعالى

سورة الشورى بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وافتتح الزخرف

بالقسم بهذا القرآن العظيم، الروح والنور المذكور في آخر الشورى، فقال سبحانه: ﴿ حَمَّ

﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وابتدأت السورة بالقسم بالكتاب على عظمة الكتاب، وهو من جمال البلاغة وحسن البيان

(١) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن للغرناطي (ص ٣٠٠).

لتناسب المقسم به والمقسم عليه، ففيه تعظيم وتشريف لهذا الكتاب فلا شيء أحق وأعظم منه ليقسم به ولا شيء أهم من وصفه فيقسم عليه^(١).

أقسم سبحانه على إنزاله عربياً مبيناً، والمبين: من الفعل (بان) اللازم : أي الواضح في ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومقاصده، أو من (أبان) المتعدي: أي الموضح لطريق الهدى والحق^(٢)، وجعله بلغة العرب رجاء أن يعقل ويفهم ولا يكون للمشركين حجة بعجمته^(٣)، وأشار بقوله: "لعلكم تعقلون" إلى ما سيأتي من انحرافات المشركين المناقضة للعقل خلال السورة^(٤).

قال ابن عاشور^(٥): " والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غرضان: أحدهما التنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة، وثانيهما التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله"^(٦).

وأقسم سبحانه على كونه مرفوعاً محفوظاً في أم الكتاب ، وهو أصل القرآن وجملته الذي عند الله في اللوح المحفوظ^(٧)، وقدم الظرفين (في أم الكتاب) و(لدينا) اهتماماً بهما ليفيد بادئ بدء

(١) ينظر: الكشف للزمخشري (٤٢٤/٥)، روح المعاني للألوسي (٦٤/٢٥) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢١٨/٧)، روح المعاني للألوسي (٦٣/٢٥) .

(٣) ينظر جامع البيان للطبري (٥٤٥/٢٠) .

(٤) " ولعل هذا التوكيد متصل بما حكته آيات سورة فصلت ثم آيات سورة الشورى السابقتين لهذه السورة لما كان يحتج به الكفار في معرض الإنكار باختلاف لغة القرآن عن لغة الكتب السماوية الأولى" التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤٩٠/٤) .

(٥) تقدمت ترجمته (٢٦) .

(٦) التحرير والتنوير (١٦١/٢٥) .

(٧) ينظر ما أخرجه ابن جرير في تفسيره عن عطية بن سعد وقتادة والسدي وعكرمة (٥٤٧/٢٠) .

أن علوه وحكمته ثابتة في أم الكتاب ^(١) .

"وبعدما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم وحقق جل وعلا أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب سبحانه ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه " ^(٢) ، فأخبر أن هذا الذكر العلي الحكيم لا يوقفه إعراض المعرضين ، ولا استهزاء المستهزئين ﴿ أَفَضْرِبُ

عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ .

ومعنى الآية على قولين :

١- أفنترك عقابكم ونعفو عنكم إذ كنتم قوما مسرفين؟ فتكذبون بالقران ثم لا تعاقبون؟ ^(٣) .

٢- أفنترك تذكيركم وإنزال الذكر إليكم لأنكم مسرفون؟ ^(٤) .

والآية على كلا التفسيرين ملائمة للسياق متناسبة مع نظم الآيات، فالمعنى الأول يشهد له أنه أتبعه بذكر عقاب الأولين بتكذيبهم واستهزائهم برسولهم، فهي وعيد لمن يسلك مسلكهم وإنكار ألا يؤاخذوا بجرمهم وقد مضت سنة الله في إهلاك من قبلهم ^(٥) .

ويشهد للمعنى الثاني أن الآية سبقت بالحديث عن إنزال الكتاب وجعله عربياً رحمة بهم وتشريفاً لهم، فكان من تمام رحمته أنه لم يمسك الذكر عنهم رغم إعراضهم وإسرافهم، قال

^(١) نظم الدرر للبقاعي (٣٨٠/١٧) .

^(٢) روح المعاني للألوسي (٦٥/٢٥) .

^(٣) ينظر جامع البيان للطبري (٥٤٨ / ٢٠) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/١٩) .

^(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/١٩) ، روح المعاني للألوسي (٦٥ / ٢٥) .

^(٥) ينظر جامع البيان للطبري (٥٥٠/٢٠) .

قتادة^(١): " والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه " ^(٢) .

ولعل المعنى الثاني هو الأقرب، ويؤيده الفاء في قوله (أفنضرب) فهي تربط ما قبلها وهو جعل القرآن عربياً، بما بعدها وهو إنكار إمساك الذكر عنهم ^(٣) .

ثم أخبر عن إرسال الرسل في الأمم السابقة، واستهزائهم بأنبيائهم وإهلاكهم ، وفصلت السورة هذا الاستهزاء برسول الله في قصصها وذكرت عاقبته عند قوله تعالى: ﴿ **الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ**

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) .

ومناسبة الآية ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ** ﴾ لما قبلها أنها تسلية وتصبير للرسول صلى الله عليه وسلم عن إسرافهم المذكور في الآية السابقة ^(٤) .

ولاشك أن الاستهزاء بالرسول استهزاء بمرسلها، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ ، وهلاكهم على قوة بطشهم هو العبرة التي سيقت لأجلها قصة موسى عليه السلام في السورة ، وانتقض بها قول المشركين ﴿ **لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ ، وهو المعنى الذي نراه خلف اسم الزخرف عنوان السورة وموضوعها ، لأنه دال على أن زخارف ومقاييس الدنيا ليست بشيء، فانظر كيف

^(١) تقدمت ترجمته (ص ٤٧) .

^(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥٤٩/٢٠) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٤٩٥) (٣٢٨١/١٠) .

^(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني نقلاً عن ابن الحاجب : " الفاء لبيان أنما قبلها وهو جعل القرآن عربياً سبب لما بعدها وهو إنكار أن يضرب سبحانه الذكر عنهم " . روح المعاني (٦٥/٢٥) .

^(٤) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٥/٢٥) .

كانت هذه الآية من أعمدة السورة التي ربطت أجزاءها بعضها إلى بعض، وتأمل التناسب الظاهر بين قوله: ﴿وَمَضَىٰ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقوله في قصة قوم فرعون ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾^(١).

كانت هذه المقدمة لتبدأ السورة بعدها في بسط الحديث عن جرائم قريش، فقد بينت فاتحة السورة عظمة الكتاب ليتضح عظم جرم من أعرض عنه على وضوحه وبيانه، واستحقاق المعرضين للعقوبة التي ستأتي في قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢) ، وذكرت أنهم قوم مسرفون لتفصل السورة هذا الإسراف والطغيان^(٣).

وبعد هذه المقدمة المتناسقة الآيات طولاً وقصراً وفاصلة، الجامعة لأهداف سورة الزخرف وأهم ما سيرد فيها، ابتدأت السورة بنقض أقوالهم بأشد ما يكون نقضها وهو إخراج بواطن نفوسهم وعقولهم بالسؤال المفحم والحجة الدامغة: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ، وضعت هذه الآية في هذا الموضع من السورة ليسقط بها كل ما ستورده السورة من كفر وخطيئة وافتراء وزعم باطل اختبأت خلفه عقول مقرة بالربوبية ونفوس تحارب الحق وهي تراه كفلق الصبح .

وكرر الفعل "خلقهن" تأكيداً لاعترافهم وزيادة في توبيخهم والتنبيه على عظيم جرمهم^(٣).

(١) ينظر الأساس في التفسير لسعيد حوى (٥/٥١٥٣، ٥١٥٤) .

(٢) ينظر: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٢٥٠، ٢٥١) .

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١٧/٣٨٨) ، ونظيرها تكرر الفعل (بجيبها) في قوله تعالى : ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي

الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿[يس: ٧٨، ٧٩] .

و(العزیز العلیم) قول بلسان حالهم فإن اعترفهم له بالخلق مستلزم لاعترافهم بهذه الصفات، قال الزخشي^(١): " هو من قول الله لا من قولهم، ومعنى قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الذي من صفته كيت وكيت، لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه"^(٢).

وقال ابن عطية^(٣):

" ومقتضى جواب قريش أن يقولوا (خلقهن الله)^(٤) فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن الله ب (العزیز العلیم) ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد من أوصافه التي ابتداء الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش "^(٥) (٦).

ثم عدت السورة النعم العظيمة لخالق السماوات والأرض استدلالاً بها على التوحيد:

(١) تقدمت ترجمته (ص ٤٢).

(٢) الكشاف (٤٢٧/٥).

(٣) تقدمت ترجمته (ص ٤٥).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [نعمان: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

(٥) المحرر الوجيز (٤٦/٥).

(٦) وقيل أنها من كلام قريش وأن قوله تعالى بعدها: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهٖ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ التفات، كقوله حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهٖ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٢-٥٣]. روح المعاني للألوسي (٦٦/٢٥). وهو مرجوح.

١ - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴾ .

٢ - ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ

﴿

٣ - ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ .

٤ - ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ .

امتن سبحانه وتعالى على عباده بأن جعل لهم الأرض ممهدة مبسطة ليهتدوا إلى الحق بالنظر والاعتبار، وليهتدوا في سيرهم وأسفارهم بين البلاد ولولا ذلك لما أطاقوا السير فيها، ونزل المطر من السماء بقدر حاجتهم لا كثيراً فيغرقهم كما أغرق قوم نوح، ولا قليلاً فيهلك الزرع، واستدل بإحياء الأرض بعد موتها على البعث والخروج بعد الموت والفتنة^(١)، وسخر لهم الفلك والأنعام للتنقل في البر والبحر، وخلق الأزواج كلها والأصناف من كل شيء، وكل ما سوى الله فهو زوج وكل ما هو زوج فهو مخلوق، وفي ذلك دلالة على انفراده سبحانه بالوحدانية وتنزهه عن الزوجية^(٢) ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩] ، وكل ذلك في معرض تقرير الربوبية الموصلة إلى التوحيد، غرض السورة ومقصودها.

ثم علمنا ربنا تبارك وتعالى دعاء ركوب الدابة وكيفية ذكره وشكره بعد الاستواء عليها

﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ

﴿، لتكون في ذكر دائم ونعلن اعترافنا لخالقنا بهذا التسخير والتيسير، ونتذكر انقلابنا إليه

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٥٥٤/٢٠، ٥٥٥)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٧/٥) .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (١٩٨/٢٧) .

ووقوفنا بين يديه ^(١) ، ونعلم الحكمة من تسخير هذه الأنعام ^(٢) ، ولنعلم أن كل من سواه خلق من خلقه مقهورون بقهره مدعون لأمره .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٣) .

" وقد جعل قوله " لتستووا على ظهوره " توطئة وتمهيداً للإشارة إلى ذكر نعمة الله في قوله: " ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه " أي حينئذ، فإن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها وأجدر بعدم الذهول عنها " ^(٤) .

وبعد هذه البدايات : (بيان فضل الكتاب وتنزيله بلغة واضحة يعقلها المشركون، التهديد

^(١) قال ابن كثير: " وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخرى في قوله : ﴿ وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧] وباللباس الدنيوي على الأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسِ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] . " تفسير القرآن العظيم (٢٢٠/٧) .

^(٢) كان المشركون يشرعون في الأنعام ما لم يأذن به الله فيحرمون بعضها في الأكل وفي الركوب ولا يذكرون اسم الله عليها، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ جِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩] .

^(٣) تقدم تخرجه (ص ٣٤) .

^(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٤/٢٥) .

بإهلاك الأولين ، فضح حقيقة النفوس وإقرارها لله تعالى بالخلق والرزق، تعداد النعم التي لا يسديها إلا الرب الخالق المدبر لهذا الكون) تشرع السورة في ذكر ألوان شركهم وحججهم التي اتضح بهذه المقدمة بطلانها جميعاً وخسرتها.

وهي مبسوطه في أرجاء السورة داحضة بأقوى الردود والحجج الناصعة، متتابعة في عرض متناسق ، مرتبط بعضها ببعض، مشتملة على مقاصد السورة بتعلقها بالتوحيد والقرآن ونشوتها عن الاغترار بالزخرف، مظهرة لجمال وحدة السورة والتحام أولها بأوسطها بآخرها .

- ١- ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥].
- ٢- ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩].
- ٣- ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٠].
- ٤- ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾
- ٥- ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .
- ٦- ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾
- ٧- ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ .

وابتداً بأشد هذه الجرائم جرأة وكفراً: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ . الآية منسجمة في سياق السورة مرتبطة بما سبق أشد الارتباط، فالآيات السابقة التي عدت النعم نشأ عنها سؤال مقدر وهو: ماذا كان من أمر المشركين إزاء تلك النعم ؟ وهل قالوا ما هو مطلوب منهم في هذا المقام من ذكر الله وتسبيحه حين استوتوا على ظهور الفلك

والأنعام؟ فكان الجواب: إنهم لم يقولوا هذا بل استقبلوا تلك النعم بالجحود والكفران (١).

فالآية متصلة بالآية السابقة، وهي أيضاً متعلقة بقوله ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لافتة إلى تناقض المشركين في اعترافهم لله بالخلق ونسبتهم إليه الولد .

قال الزمخشري (٢): "﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين" (٣) .

إن هذا هو أشد الكفر المبين، إذ نسبوا الولد إلى الرحمن صاحب الفضل ومسدي النعم ومسخر الفلك والأنعام ، وقسموا لخالقهم ما اعتقدوه أدنى صنفي الولد، واختاروا له من يتربى في الزينة والنعمة، ورضوا له ما تسود منه وجوههم وتأنف نفوسهم (٤) (٥) .

(١) التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب (١١٤/١٣) بتصرف يسير .

(٢) تقدمت ترجمته (ص ٤٢) .

(٣) الكشاف (٤٣٠/٥) .

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري (٥٦٢/٢٠-٥٦٤) الكشاف للزمخشري (٤٣١/٥، ٤٣٣) .

(٥) وهذه الآية "أومن ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين" وشبهاتها في القرآن الكريم ليست

انتقاصاً لشأن المرأة بل هي تعبير عما كان سائداً في أذهان العرب الذين تندد الآيات بمشركيهم واعتباراتهم لتكون الحجة فيها أشد إلزاماً وإفحاماً، فقد كرم الإسلام المرأة واعتبرها والرجل متساويين في أصل الخلقة، واعتبرها أهلاً لكل تكليف كلف به الرجل، وكل واجب أوجب عليه وكل خطاب خوطب به، وأباح لها كل ما أباح له وحرّم عليها كل ما حرّم عليه ومنحها كل ما منح . التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤٩٥/٤) بتصرف يسير .

قال البقاعي رحمه الله^(١) : " ولما كانت نسبة الولد إليه سبحانه مما لا ينبغي أن يخطر بالبال على حال من الأحوال وكانت نسبته على سبيل الحقيقة أبعد منها على طريق المثال بأن يقال: الملائكة عنده في العزة بمنزلة البنات عند الأب ، قال مرشداً إلى أن ما قالوه لو كان على قصد التمثيل في غاية القباحة فضلاً عن أن يكون على التحقيق ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ " (٢) .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ لا زالت الآيات من أول السورة مرتبطة برباط واحد وهو ذكر ضلالات المشركين وهدمها واحداً تلو الآخر، وإسقاطها بالأدلة العامة التي قدمت بها السورة، ثم بتخصيص كل شبهة وفرية برد مستقل .

وقولهم: (الملائكة بنات الله) كفر من ثلاثة أوجه : أنهم جعلوا لله ولداً ممن خلق، وأن هذا الولد هو أبغض أنواع الولد إليهم، وأنهم جعلوا الملائكة إنثاً بغير علم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٣) .

وذكر بعدها عذرهم الواهن في عبادة الملائكة ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ ، ورد عليهم تجهيلاً وتبكيئاً: "أشهدوا خلقهم؟" ستكتب شهادتهم التي شهدوا بها على أنوثة الملائكة وبنوتهم ، وسيسألون عنها ويعاقبون عليها، وهو تهديد شديد ووعيد أكيد^(٤) .

﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون ويفترون في قولهم أن الملائكة بنات الله وفي قولهم أن الله

(١) تقدمت ترجمته (ص ٢٢) .

(٢) نظم الدرر (١٧ / ٤٠٠ ، ٤٠١) .

(٣) الكشف للزمخشري (٥ / ٤٣٣) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٧ / ٢٠٤) .

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧ / ٢٢٣) روح المعاني للألوسي (٢٥ / ٧٢) ، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩ / ٥١٢٩) .

راض عن عبادتهم الأوثان والملائكة ^(١)، فقولهم: (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أن استدلالهم به على رضا الله ما هو إلا ظن وافتراء وكذب على الله تعالى ^(٢).

﴿ أَمْ أَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ معادل لقوله :
 ﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ والمعنى أحضروا خلق الملائكة أم أنزل عليهم كتاب من قبل القرآن
 يجل لهم عبادتهم ويخبرهم بكيفية خلقهم، وبرضا الله عن شركهم، فهم متمسكون به يعولون
 عليه ويحتجون به، والضمير في (قبله) للقرآن، أو من قبل شركهم وادعائهم هذا أو من قبل
 الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢٠٩/٧) .

(٢) استدلال المعتزلة بهذه الآية على أن أفعال العبد لا تقع بمشيئة الله بل باختياره فقط وأن الله لم يشأ هذا الفعل، فهم بذلك يقولون بوقوع شيء في ملكوت الله بغير إذنه وبما ينافي إرادته تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وتعلقهم بهذه الآية باطل فإن كل شيء يجري بمشيئة الله وتقديره، ولا يقع شيء في هذا الكون إلا ما شاءه بما في ذلك كفر الكافر وعصيان العاصي ولكن مشيئته لكفر الكافر لا تعني رضاه وأمره به ولا تنفي اختيار

العبد وقدرته على الفعل ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-

١٠]، وإنما رد الله عليهم هنا لأنهم جعلوا مشيئته دليل رضاه ومحبه لفعالهم فرد الله عليهم ذلك الاعتقاد

فهو لم يرضه ولم يأمر به ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧]. فلم يذمهم لأنهم قالوا بمشيئته للكفر وإنما ذمهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق وأنهم ردوا أمره بالإيمان احتجاجاً بالمشيئة، وظنوا أن الأمر والإرادة متطابقان. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ١٤٥، ١٤٦)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٦/٢٧).

كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿ [الروم: ٣٥] فقولهم باطل ظاهر البطلان لأنه لا يقوم على دليل ولا يستند إلى عقل ولا نقل (١).

ولما انتفى دليلهم العقلي والنقلي أخبر سبحانه عن السبب الحقيقي لإعراضهم وإصرارهم على الكفر (٢): ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٣) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾.

لما سقطت جميع حججهم وظهر بطلانها اعترفوا بحقيقة أمرهم وقالوا إصراراً على الشرك ورداً للحق ولرسول الله: إنا وجدنا آباءنا على دين غير الدين الذي تدعوننا إليه، وجدناهم على استقامة وعلى اتجاه وعادة وطريقة عظيمة تستحق الاقتداء (٤).

وليس احتجاجهم بالتقليد بحاجة إلى رد أو دحض لأنه عناد صريح واحتجاج ضعيف، بمعارضته للعقل والفطرة، فأعرضت عنه الآية وكررت لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإخبار بتشابه أهل الكفر مواساة له وتخفيفاً عنه صلى الله عليه وسلم، فهم إخوان في الاستهزاء برسول الله، متشابهون في التحجج بالتقليد الأعمى، والأعذار الواهية، " والآيات كما هو ظاهر متصلة بسابقتها اتصال سياق وموضوع وتعقيب" (٥).

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٧/٢٧)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨)، روح المعاني للألوسي (٧٣/٢٥).

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٠٧/٢٧).

(٣) الأم بالفتح القصد، أمه يؤمه أما إذا قصده، والأم العلم الذي يتبعه الجيش، والأمة بالضم: السنة والهيئة والطريقة والدين، قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة له. لسان العرب لابن منظور (٢/١٣٢-١٣٣).

(٤) ينظر النكت والعيون للماوردي (٢٢١/٥)، البحر المحيط لأبي حيان (١٢/٨).

(٥) التفسير القرآني لعبدالكريم الخطيب (٤/٤٩٦).

وخصّ المترفون بالذكر لما تقصد إليه السورة من نبذ الزخرف والترف والتنعم الذي هو سبب اغترارهم واغترار آبائهم بالدنيا وانصرافهم عن النظر الى التقليد^(١)، فالمترفون " هم الذين يقومون دائماً في وجه كل دعوة تخرج بالناس عما هم فيه من حال إلى حال، فإن هذا التحول يؤذن أهل الترف والغنى بأن يخرجوا عما هم فيه، ومن هنا كان أكثر الناس حرباً وأشدّهم عداوة لدعوات الإصلاح، هم أصحاب المال، والجاه والسلطان، حيث لا يريدون تحوّلاً عن حالهم التي هم فيها"^(٢).

﴿ قَلَّ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ أي قلنا للندير قل فقال كل نذير لأمته.^(٣) أولو : هي همزة الاستفهام دخلت على واو عطف الجملة على جملة سابقة فصارت كأنها شرطية تقديرها : أفتصرون على الكفر وتقتدون بأبائكم وإن جنتكم بأهدى من دينهم ؟^(٤)

وبالنظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾، نلاحظ تشابه الآيات التي تعدد افتراءاتهم وهي تفتتح بواو العطف التي تردّها إلى قوله " ولئن سألتهم... الآية" ليحلي الباطل فيها وبمحقه^(٥).

كما نرى تناسق الردود التي تستنهض العقل ليحكم بسفه ما يقولون وعظم ما يفترون وهي

^(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨)، نظم الدرر للبقاعي (١٧/٤١١، ٤١٢)، روح المعاني للألوسي (٢٥/٧٥).

^(٢) التفسير القرآني لعبدالكريم الخطيب (١٣/١٢٢).

^(٣) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/١٩٨).

^(٤) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٥١)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٥/٨١).

^(٥) ينظر دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٢٨٦).

تتخذ أسلوب الإنكار الشديد، ﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾، ﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ ﴿ أَمْ ءَايَنَّهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ ءَفَهُمْ بِهِ ءَمْسْتَمْسِكُونَ ﴾ .

ثم ذكر سبحانه انتقامه من الذين من قبلهم ليتعضوا بحالهم ويحذروا من سوء ما لهم ﴿ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ^طفَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ تأكيداً لما افتتحت به السورة من تهديدهم بإهلاك الأولين، ومضي سنة الله فيمن يسلك طريقهم .

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَهُؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُنتُمْ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقُرَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَن تَسْمَعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿

بعد أن ظهرت حقيقة مشركي مكة وانكشف دافعهم إلى الشرك وهو التقليد لأبائهم والتعطيل لعقولهم حباً لزعرف الدنيا، جاءت الآيات بموقف إبراهيم عليه السلام في الانسلاخ من الزعرف والبراءة من الشرك والتنصل من التقليد ، واتباع الفطرة وإخلاص التوحيد لفاطر السماوات والأرض .

فقصة إبراهيم عليه السلام دليل على التوحيد بإثباتها لوحدة دعوة الأنبياء واستدلالها بالخلق على الألوهية جرياً على ما بدأت به السورة ، وهي رد على ما سبق من قولهم ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) ، وهي ابتداء تفصيل لقوله : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ .

فأعلن إبراهيم عليه السلام البراءة من شرك أبيه وقومه واستدل بقوله: (إلا الذي فطرني) على الخلق المستقر في نفوسهم فسقط احتجاجهم بالتقليد وبطل اهتداؤهم بالآباء (١).

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى الحق الذي هو أهدى مما وجدوا عليه آباءهم فاهتدوا بهم .

وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد باقية في ذريته من بعده ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] (٢)

ثم يقول سبحانه: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ ﴾ حتى جاءتهم دعوة التوحيد أو جاءهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩١/٢٥) .

(٢) الكشاف للزمخشري (٤٣٦/٥) .

القرآن والرسول المبين، ولكنهم كفروا بالحق لما جاءهم وغرهم طول الأمل وألهاهم الزخرف فقلدوا واشتغلوا بالترف والنعيم عن كلمة التوحيد ، فالزخرف هو سبب بعدهم وضلالهم وهو أكبر دوافع التقليد ^(١) .

ثم يتواصل التشريف للكتاب المبين بالدفاع عنه ضد افتراء المشركين الذين يستمر تهافت حججهم الواهية بشبهة جديدة وحجة مريدة ومكابرة عنيدة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يقولون هذا سحر فإن كان حقاً فهلا نزل على عظيم من عظمائنا ^(٢) .

والقريتان مكة والطائف ^(٣) ، واختلف في مرادهم بالرجلين فقيل الوليد بن المغيرة ^(٤) من مكة وعروة بن مسعود ^(٥) من الطائف وقيل غير ذلك ^(٦) .

"والآيات متصلة بالسياق من حيث احتواؤها صورة لمواقف زعماء الكفار وعقائدهم وأقوالهم التي ما فتئت فصول السورة تذكرها" ^(٧) .

وسبب نزول الآية :

قول الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل علي هذا القرآن أو علي ابن مسعود

^(١) . ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٧ / ٢٠٩) ، روح المعاني للألوسي (٧٧ / ٢٥) .

^(٢) جامع البيان للطبري (٢٠ / ٥٨٠) .

^(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥ / ٣١٨٦) .

^(٤) تقدمت ترجمته (ص ٦٣) .

^(٥) تقدمت ترجمته (ص ٦٣) .

^(٦) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٠ / ٥٨٠ - ٥٨٢) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧ / ٢٢٦) وقال

ابن كثير : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلديتين كان .

^(٧) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤ / ٥٠١) .

الثقفي، فنزلت (١).

قاسوا النبوة بالمال والجاه، ولم يعلموا أن الرسالة رتبة عظيمة تستدعي عظم النفس لا عظم المال، تستدعي التحلي بالفضائل والكمالات القدسية لا بالزخارف الدنيوية (٢).

ومن أشد مظاهر إسرافهم في الكفر أن يعترضوا على من يقرون له بالخلق والرزق ويستدركوا على من بيده خزائن السماوات والأرض، ولذلك رد الله عليهم في اعتراضهم هذا إنكاراً واحتقاراً لهم بما قالوا :

﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يدافع

سبحانه وتعالى عن كتابه الكريم الذي افتتحت السورة به وقصدت الى تعظيمه وبيان علو

مكانته، ﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ وهو إنكار شديد وتوبيخ وتقريع على نسق الردود التي مرت معنا في المقطع السابق ، فالسورة لحمة واحدة، متكاملة مترابطة، متناسقة الألفاظ والمعاني .

كيف يقسمون النبوات وهو الذي قسم بينهم أرزاق حياتهم وفاوت بينهم في المراتب ليكون بعضهم مسخراً لبعض، لا ليعتقدوا كرامة الغني عند الله وهوان الفقير ولا ليحكموا بفضل رجلي القرئتين بما يملكان من مال وجاه فانيين (٣) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله :أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم ... الآية

(١) تقدم في مبحث أسباب نزول السورة (ص ٦٣).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (١٩٩/٤) .

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٦/١٩) البحر المحيط لأبي حيان (١٤/٨).

قال: " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله ليعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يجب فمن أعطاه الدين فقد أحبه " (١).

والمعنى الذي تحمله آية ﴿ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يصب في غرض السورة ويرجع بنا إلى قوله: ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨] ، ويسقط قول مشركي قريش ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ وقول فرعون: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ .

ووصفها سبحانه بالدنيا للتأكيد على فنائها وهوانها قياساً إلى الجنة والآخرة، وإيمان العبد بهذا التفاوت وهذا التقسيم الإلهي الحكيم تزهيد له في اللهث و شدة السعي والحرص، وعون على التوكل على الله (٢)، ودافع قوي للقناعة والرضا وعدم الحزن على ما فات، وترك الأسى على شيء من الدنيا، وهو من أعظم مقاصد السورة الكريمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: " أيها الناس اتقوا الله وأجملوا (٣) في الطلب فإن نفساً لن تموت حتى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٧٢) (١٨٩/٦) والحاكم في المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. المستدرک مع التلخيص (٤٤٧ / ٢)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٩٩) (١١٩/٢)، وينظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢٧١٤) (٤٨٢/٦) .
(٢) ينظر البحر المحيط لأبي حيان (١٤/٨) .
(٣) أجمل في طلب الشيء اعتدل ولم يفرط . لسان العرب (٦٨٥/١).

تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها " (١) .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ تأكيد بعد تأكيد لحقيقة الدنيا وما يجمعونه فيها، فسور الزخرف الدنيوي من الذهب والفضة في أبوابهم وسررهم وسقوفهم ومعارضهم لبيان شدة هوانه على الله .

أي لولا أن يعتقد الناس أن السعة في المال دليل المحبة فيكونوا جميعاً ملة واحدة في طلب الدنيا أهل كفر وحب لها وتفرغ وسعي لأجلها، لجعل بيوت الكفار من ذهب وفضة، سقوفها ومعارضها وأبوابها وسررها كل ذلك من فضة أو من ذهب وفضة، لأعطاهم إياها بلا حساب فإنها لا قدر لها عنده لفنائها . (٢)

إن أهل حب الدنيا لتعجل لهم طيباتهم فيها وليس لهم في الآخرة من نصيب، بل يقال لهم:

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠] .

أما زينة الآخرة وزخارفها وذهبها وفضتها فهي خاصة للمتقين خالصة، مدخرة لهم عند الله لا يشاركون فيها أحد ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وسنجد في آخر السورة التفصيل

لثواب المتقين في الآخرة ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) يِعْبَادِلَا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب التجارات باب الاقتصاد في طلب المعيشة، (٢١٤٤) (ص ٣٦٩)، والحاكم في مستدركه (٣/٢، ٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٠٧) (٢٠٩/٦) .

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٥٩٢/٢٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٣/٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٦/٧) .

خَوْفٌ عَلَيْكُمْ أَيَّامٌ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤﴾، ووصف ما أعطوه من النعيم بما صبروا وما وعدوا به من ذهب الجنة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾.

قال عليه الصلاة والسلام: " لا تلبسوا الحرير ولا الديداج (١) ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة " (٢).

وقال: " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها " (٣).

وقال: " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء " (٤).

وفي هذه الآية ما فيها من التحريض على التقوى لأنها سبب التباين في منازل الآخرة، والترغيب في السعي إلى ما عند الله والزهد في الدنيا لأنها متاع قليل نسبة إلى ما ادخره الله تعالى عنده للمتقين .

وفيها إيماء خفية إلى قوله أول السورة: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمَّةٍ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴾ (٤)، فالظرفان (عند ربك) و(لدينا) كلاهما فيه تقريب وتشريف ومكانة عالية ، جعلت للمتقين لأنهم نبذوا الزخرف تمسكاً بالكتاب فارتفعوا بارتفاعه وشرفوا بشرفه.

(١) الديج النقش والتزيين والديداج ضرب من الثياب، وديباجة الوجه حسن بشرته . لسان العرب (١٣١٦/٢ ، ١٣١٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب الأكل في إناء مفضض (٥٤٢٦) (ص ١٣٨١) وكتاب الأشربة باب الشرب في آنية الذهب (٥٦٣٢) وباب آنية الفضة (٥٦٣٣) (ص ١٤٢٨) ، ومسلم في كتاب اللباس والزينة (٢٠٦٧) (١٦٣٧/٣ ، ١٦٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب مثل الدنيا في الآخرة (٦٤١٥) (ص ١٥٩٨) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب مثل الدنيا (٤١١٠) (ص ٦٨٤) ، والترمذي في الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) (ص ٥٢٤) وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه ، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٨٦) (٣٠١/٢) .

وتتحدث الآيات بعدها عن عاقبة المعرضين عن هذا الكتاب الذين لم يقدره حق قدره، فقال

تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

العشو ضعف البصر، والعشواء الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تحبب بيديها كل ما مرت

به. ^(١) ، والقيض قشرة البيض الملاصقة لها ^(٢) وذكر الرحمن هو القرآن الكريم المذكور في قوله: ﴿

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ ^(٣) ، أي ومن يعرض عن

ذكر الله ولم يخش عقابه نسلط عليه شيطاناً يغويه ولا يفارقه، يزين له الضلالة ويخيل إليه أنه

على الهدى ^(٤).

" وفي اختصاص صفة الرحمن بالذكر هنا من بين صفات الله سبحانه وتعالى، تذكير بهذه الرحمة

المنزلة من الرحمن، وهي القرآن، وهي التي يعرض عنها أصحاب القلوب المريضة، فيتسلط عليهم

الشیطان، ويملك أمرهم " ^(٥).

والآية ملتحمة في نظم السورة متناسقة مع سياقها، فهي تحذر من الاغترار بالزخرف المذكور في الآية

السابقة عن ذكر الله الذي بينت فاتحة السورة شأنه.

قال القرطبي ^(٦):

" وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ [الزخرف: ٥]

^(١) لسان العرب لابن منظور (٢٩٦٠/٤) .

^(٢) المصدر السابق (٥/٣٧٩٤) .

^(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي (٨٠/٢٥) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢٠٩) .

^(٤) ينظر جامع البيان للطبري (٢٠/٥٩٥)، معالم التنزيل للبغوي (٧/٢١٣) .

^(٥) التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٣/١٣١) .

^(٦) تقدمت ترجمته (ص ٤٠) .

أي نواصل لكم الذكر فمن يعيش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه الى أقاويل المضلين وأباطيلهم نقيض له شيطانا " (١) .

وفي قوله: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ إشارة إلى قولهم في الاقتداء بآبائهم بكل تأكيد

وإصرار: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) اخذعوا واغترتوا بدين آباءهم و أعماهم الزخرف عن رؤية الحق .

ونلاحظ تكرر لفظ الهداية في السورة ﴿ وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠)

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ﴾

[الزخرف: ٢٤] ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ (٢٧) ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ والهداية

هي الاعتصام بالكتاب المبين واتباع السبيل المذكور في هذه الآية ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ ﴾ وهو الصراط المستقيم الذي سيأتي في قوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٣)

والذي تؤكد السورة الأمر بالاستمسك به من أولها إلى آخرها .

حتى اذا لقي العاشي ربه وكشف عنه غطاؤه وجاء معه قرينه - كما في قراءة التثنية (حتى إذا جاءنا) (٢) - أبصر حقائق الأمور بعد انقضاء دار العمل و تمنى لقرينه الذي أضله أشد الويل وأضعاف العذاب، وتمنى أن كان بينهما في الدنيا بعد ما بين المشرق والمغرب كيلا يغويه ويرديه، ولكنهم إذ ظلموا أنفسهم في الدنيا واجتمعوا على معصية الله فلن ينفعهم يومئذ اشتراكهم في العذاب ولن يواسيهم لعظم ما هم فيه، بل سيشترون في العذاب كما اشتروا في سببه وهو

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤٧/١٩) .

(٢) قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتثنية (جاءنا) وقرأ باقي القراء العشرة بالإفراد (جاءنا) .

النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٣٦٩/٢) .

الكفر والاستهزاء بالرسول^(١) .

وتقصد هذه الآيات إلى ما يقصد إليه قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢٧) من بيان خسارة خلة الدنيا وانقطاعها يوم

القيامة، إلا ما كان في تقوى الله ومرضاته .

ثم يتجه الرحمن بالخطاب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي

الْعُمَىٰ وَمَنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ليس عليك هداهم فإنما الهداية إلى السبيل من الله

وحده، ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٧].

"والآيات متصلة بموضوع الآيات السابقة التي نددت بالكفار المشركين ووصفت شدة عنادهم

ومكابرتهم، وفيها تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم في موقفه ودعوته، وتسرية عنه لما يلقاه من

عناد الكفار ومكابرتهم" ^(٢).

وهذا الإنكار زيادة في تقييعهم وذمهم لأن الآيات ازدادت وضوحاً والتخويف بموقف العاشي

وقرينه يرهبه كل من له قلب، وهم مع هذا لا يتراجعون ولا يتخاذلون عن كفرهم، فجاء

وصفهم بالعمى والصمم التام بعد الغشاوة في العين، لأن زخارف الدنيا كانت غشاوة أضعفت

بصر اللاهي عن الذكر ثم قيض له الشيطان فمكن الغشاوة من عينيه حتى صارت عمى، ولم

يعد قادراً على رؤية الحق ختم الله على قلبه وسمعته وبصره فمن يهديه من بعد الله .

^(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٥/٤٤٤)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/٢٠١) .

^(٢) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤/٥٠٧) .

قال ابن عطية^(١) في مناسبة هذه الآية لما قبلها: "لما ذكر تعالى حال الكفرة في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب، اقتضى ذلك أن تشفق النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن عتوها وإعراضها عن أمر الله، رجعت المخاطبة إلى محمد عليه السلام على جهة التسلية له عنهم وشبههم بالصم والعمى، إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً" ^(٢).

وقال الرازي^(٣) في مناسبتها لقوله ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾: "اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي وصفهم في هذه الآية بالصم والعمى، وما أحسن هذا الترتيب، وذلك أن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا سيكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى، فإذا واطب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى" ^(٤).

﴿فَأَمَّا نَدَّهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ ^(٤١) أَوْ نُرِيَّتَكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٥٠﴾
الانتقام منهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهم يوم بدر كما قال تعالى في الدخان:
﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] والبطشة هي بطشة بدر^(٥)، وقد وعدوا في مطلع السورة بالإهلاك وبمضي سنة الله فيهم إن كذبوا واتبعوا نهج الأولين "﴿فَأَهْلَكْنَا﴾

^(١) تقدمت ترجمته (ص ٤٥).

^(٢) المحرر الوجيز (٥٦/٥).

^(٣) تقدمت ترجمته (٥).

^(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/٢١٥-٢١٦).

^(٥) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٨/٢٥).

أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ .

و"لما هون الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم ووعدده النصر عليهم فرع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابه وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجرًا من تصلبهم في كفرهم ونفورهم من الحق" ^(١): ﴿ فَاسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ السين والتاء للتأكيد، أي تمسك غاية التمسك بالذي أوحى إليك، فإنه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم وإلى جنات النعيم، وهو ذكر وشرف لك ولقومك إن تمسكتم به واعتصمتم ^(٢)، حيث نزل بلسانكم عربياً مبيناً، وسوف تسألون عن العمل به و قيامكم بحقه ^(٣). فكان الأمر بالاستمساك بالكتاب المبين ثم بيان أنه هو الصراط المستقيم، ثم بيان أنه رفعة للمتمسكين به وأنه أمانة ثقيلة سيسألون عنها ، وكل ذلك تعظيم للكتاب الذي افتتحت السورة بالقسم به .

وفي ختام هذا المقطع من سورة الزخرف رد الله تعالى على المشركين في زعمهم المتقدم أن ما هم

^(١) المصدر السابق (٢٥/٢١٩) .

^(٢) أخرج البخاري في كتاب المناقب باب مناقب قريش (٣٥٠٠) (ص ٨٦٥ ، ٨٦٦) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين ."

وأخرج ابن جرير في تفسيره (٢٠/٦٠٣) عن مجاهد في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال: " يقال للرجل ممن أنت فيقول من العرب فيقال من أي العرب فيقول من قريش . فهو شرف لأمته ما تمسكوا به واعتصموا، وهو رفعة وعزة ومنعة لمن تمسك به وسار على هداه من قريش وغيرها، لأن الاعتصام به هو مقياس الشرف والفضل، والعزة بالقرآن لا بالقبيلة ولا بالنسب ولا بالسيادة فمن ابتغى العزة في غيره أذله الله ."

^(٣) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/٢٠٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٢٢٩، ٢٣٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢١٩) .

عليه هو من هدى الله وأن لو شاء لما عبدوا الملائكة ولما جعلوا له من عباده جزءاً^(١)، فبين أنه لم يرض من دونه إلهاً أو شريكاً ولم يأذن بذلك ، وقرر وحدة الرسل في الدعوة إلى صراطه المستقيم و إجماع الشرائع على إفراده تعالى بالعبودية، فقال سبحانه :

﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي

جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت إليه من عبادة الله وحده لا شريك له^(٢)، " والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول، فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون؟ " ^(٣) .

ونرى كيف تناسقت مقاطع السورة في تسلسلها وتدرجها في الرد على المشركين، فاستدل أولاً بموقف ابراهيم عليه السلام على بطلان التقليد ثم بين لهم هوان الزخرف الذي ردوا الدعوة لأجله، ثم خوفهم بذكر عاقبة المغترين بهذا الزخرف، ثم كان التهديد بالاستئصال والوعيد بالانتقام، ثم أعرض عنهم بعد الإعدار والإنذار وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالثبات على الصراط المستقيم .

^(١) ينظر التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤/٥٠٨) .

^(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٢٣٠) .

^(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٩١) .

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَضْعَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَاذِبُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْتْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ

الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ .

اتصلت هذه الآيات بسابقتها وهي تنتقل إلى الحديث عن قصة موسى عليه السلام التي
جاءت مقررمة لمعنى الآية السابقة ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ وشاهدة على وحدة دعوة الرسل، ومفصلة لقوله في فاتحة السورة:
﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾
فَاهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾، ومواسية للنبي صلى الله عليه وسلم،
ومحذرة لقريش من عاقبة آل فرعون، ومبينة لغرض السورة في نبذ الزخرف (١) .

قال البيضاوي^(٢): "يريد باقتصاصه تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقضة قولهم ﴿
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام
إلى التوحيد ليتأملوا فيها"^(٣) .

وقال عبدالكريم الخطيب^(٤): "مناسبة هذه القصة هنا، هو هذا الشبه القريب بين فرعون، وبين

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥٧/١٩)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٠/٨)، التحرير والتنوير
لابن عاشور (٢٢٣/٢٥، ٢٢٤) .

(٢) عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي الفارسي، قاض ومفسر، ولد في مدينة البيضاء بفارس
قرب شيراز، من أشهر تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) في التفسير، و(منهاج الوصول إلى علم
الأصول)، توفي ٦٨٥ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٤٦/٢)، الأعلام للزركلي (١١٠/٤) .

(٣) أنوار التنزيل (٢٠٢/٤) .

(٤) تقدمت ترجمته (ص ١٠٣) .

فراعين قريش، الذين كانوا ينظرون إلى النبي من سماء عالية، من الغرور الكاذب، والوهم الخادع، فيكذبون رسول الله، ويهزأون به، لا لشيء إلا لأنه ليس أكثرهم مالاً، ولا أوسعهم غنى، وإنهم لينكرون أن يختار الله لرسالته من لا يختارونه هم للرياسة عليهم، والسيادة فيهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾، وقصة موسى مع فرعون، هنا، هي مرآة يرى المشركون على صفحتها وجوههم المنكرة في شخص فرعون، وماركبه من غرور واستعلاء، حتى أوردته ذلك وقومه موارد الهلاك " (١).

فالقصة ملتحمة في نظم السورة متلائمة مع سياقها وموضوعاتها.

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَكَانَ فِي رِيسَالِنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

أرسلنا موسى إلى فرعون و قومه ودعاهم إلى عبادة الله كما دعوت قومك ، وقوبل بالسخرية والتكذيب كما قابلك قومك، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم (٢) وتهديد لقريش بأن مشابهمهم لآل فرعون في أفعالهم ستؤدي إلى مشابهمهم في العاقبة.

وقول موسى عليه السلام ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه إشارة لقريش إلى اعترافهم المتقدم بالربوبية التي تستلزم إخلاصهم العبادة لله وحده، وتأكيد بأن موسى عليه السلام جاء من قبل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمَا نُزِّلَهُمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وأراهم الله الآيات البيّنات كل آية

(١) التفسير القرآني (١٣/١٤٠).

(٢) ينظر جامع البيان للطبري (٢٠/٦٠٧).

عظيمة في نفسها متناهية في الكبر والإعجاز، ليرجعوا عن غيرهم ويتوبوا عن كفرهم^(١)، وأخذهم بالعذاب حتى طلبوا من موسى أن يكشفه عنهم ووعده بالاهتداء، فلما كشف عنهم العذاب لم يؤمنوا، بل نقضوا عهدهم وأصروا على كفرهم^(٢).

وسموه ساحراً على وجه التعظيم كأنهم يقولون يا أيها العالم فقد كان السحر في زمانهم علماً عظيماً ممدوحاً صاحبه، أو نادوه حسبما اعتادوا أن ينادوه بالساحر فهو اسمه المتعارف عليه عندهم، أو هي شدة مكابرة منهم أن ينعتوه بالسحر استهزاء به وهم في أشد الكرب^(٣)، أو "أنهم قالوا يا موسى كما في الأعراف^(٤) ولكن حكى الله تعالى كلامهم هنا على حسب حالهم ووفق ما في قلوبهم تقيحاً لذلك وتسلية لحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويكون ذلك على عكس قوله سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٧]"^(٥)، والأرجح - والله أعلم - ما قاله الجمهور أن المراد يا أيها العالم .

و لما كشف عنهم العذاب بدعوة موسى عليه السلام خشي فرعون إيمان قومه وضياع ملكه^(٦)

(١) ومن هذه الآيات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ءآيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. ينظر: الكشاف للزمخشري (٤٤٧/٥)، مفاتيح الغيب للرازي (٢١٩/٢٧)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٣/٤).

(٢) ينظر معالم التنزيل للبغوي (٢١٧/٧).

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٠٩/٢٠)، مفاتيح الغيب للرازي (٢١٩/٢٧)، روح المعاني للألوسي (

٨٨/٢٥).

(٤) في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

(٥) روح المعاني للألوسي (٨٨/٢٥).

(٦) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٤/٤).

فنادى فيهم : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١)

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ

جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

وهذا النداء هو المقصود من سوق القصة في سورة الزخرف، فإنه لما تقدم اعتراض قريش أتبع

بذكر نداء فرعون الذي سبقهم إلى هذا التفكير الديني والاعتراض الجريء بقوله: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ

عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ فانتقم الله منه بهذا القول وجعله عبرة للذين قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١).

وفي قول فرعون (مهين) وقول المشركين ﴿ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ غاية الجرأة على رب

العالمين والاستهزاء برسله ووصفهم بالمهانة استناداً الى مقاييس دنيوية تبطلها سورة الزخرف

وتظهر زيفها .

و (أم) هنا تحتل عدة معان:

- ١- أن تكون منقطعة بمعنى بل (بل أنا خير من هذا الذي هو مهين) (٢).
- ٢- أن تكون متصلة على معنى : أنا خير من هذا الذي هو مهين أم هو خير ؟ ولم تذكر (أم هو خير) لدلالة السياق عليها (٣).
- ٣- أن تكون متصلة على معنى : أفلا تبصرون أم أنتم بصراء . قال الزمخشري (٤): " أم

(١) ينظر البحر المحيط لأبي حيان (٢٠/٨).

(٢) ينظر : معالم التنزيل للبغوي (٢١٧/٧)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٢/٨).

(٣) ينظر جامع البيان للطبري (٦١٢/٢٠) .

(٤) تقدمت ترجمته (ص٤٢).

هذه متصلة لأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء^(١) .

والأسورة جمع سوار أو إسوار وهو ما تحلى به الأيدي، و كانوا إذا سودوا رجالاً سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب فيكون ذلك دلالة لسيادته^(٢)، ومقترنين أي يأتون معاً من قرن الشيء بالشيء إذا شده وجمعه إليه^(٣) .

والذي طالب به فرعون من أسورة الذهب وكثرة الجنود إنما هو علامة ملوك الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين، والذهب الذي وعدوا به مدخر لهم في جنة النعيم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ .

فاستخف فرعون عقول قومه فاستجابوا له وسارعوا لطاعته لفسقهم وخفة أحلامهم^(٤)، فانتقم الله منهم أجمعين وجعلهم عبرة وآية لقريش، وهذا إعدار وإنذار للمقلدين التابعين ، ولن ينفعهم يوم القيامة أنهم في العذاب مشتركون .

وهو تعريض و تهديد آخر لقريش بعد قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ وقوله: ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ .

ويظهر في القصة ارتباطها الوثيق برأس السورة ، فهي نموذج على قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا

(١) الكشاف (٤٤٩/٥) .

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٦١٥/٢٠)، معالم التنزيل للبغوي (٢١٧/٧) .

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣٦١١ ، ٣٦١٠/٥) .

(٤) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٤/٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٢/٧) .

وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ ولاحظ الصلة بين قوله (يستهزؤون) وقوله (إذا هم منها يضحكون) وبين (مثل الأولين) و (مثل الآخرين) ، كما تتجسد فيها الخصائص التي ذكرتها فاتحة السورة عن القرآن في كونه مبيناً ، وكونه علياً ، وكونه حكيماً ، وكونه مذكراً^(١) .

وبعد قصة موسى عليه السلام التي أكدت نفي الشركاء المتضمن في قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ ﴿٢﴾ جاءت قصة عيسى عليه السلام لنفس الغرض ولتحقيق مقصد السورة بإثباتها استحقاق العبادة لله وحده وعبودية عيسى عليه السلام وبشريته، وتقريرها لوحدة شرائع الأنبياء وهدف رسالاتهم وهو الدعوة إلى صراط الله المستقيم^(٢) .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ﴿٣﴾ ، ذكر سبحانه موقفاً آخر من مواقف المشركين في الكفر والعناد وهو مجادلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في عيسى ابن مريم ، " وهذا تصدير وتمهيد بين يدي قوله: " ولما جاء عيسى بالبينات .. الآيات " الذي هو المقصود من عطف هذا الكلام على ذكر رسالة موسى عليه السلام " (٣) .

وسبب نزول الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش: " يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير . وقد علمت قريش أن النصرارى تعبد عيسى بن مريم وما تقول في محمد . فقالوا: يا محمد أأنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون . قال: فأنزل الله عز

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٥٤) بتصرف يسير .

(٢) ينظر في هذا المعنى: البحر المحيط لأبي حيان (٨/٢٠) ، في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣١٩٦) ، الأساس في التفسير لسعيد حوى (٩/٥١٦٦) .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٢٣٦) .

وجل ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال قلت: ما يصدون؟ قال: يضحون ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة " (١) .

" ولاحظ التقارب الشديد بين ما جاء في قصة موسى من قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ وبين قوله سبحانه هنا: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾، ومن معاني الصد الضحك والهزء " (٢) .

ضحوا وفرحوا ظانين أنهم غلبوا النبي صلى الله عليه وسلم بحجتهم، ولم يضربوا هذا المثل إلا جدلاً وخصومة، لا طلباً للحق والهدى (٣)، يجادلون عن كفرهم بحجج واهنة كما جادلوا عنه بقولهم (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ، ولذلك قال سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ، كما قال قبلها ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخِرُّونَ ﴾ (٢٠) فهم قوم يخوضون في الباطل ويعتمدون على الأهواء لا على العقل واتباع الدليل .

قال صلى الله عليه وسلم:

" ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل " ثم قرأ: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۗ

(١) ينظر تخريج الحديث في مبحث أسباب النزول (ص ٦٤) .

(٢) دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٢/٤٤٠) .

(٣) ينظر الكشاف للزمخشري (٥/٤٥١) .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿١﴾ .

ورد الله سبحانه عليهم مبيناً حقيقة عيسى عليه السلام الذي يجادلون فيه ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ و ما أيدته الله به من المعجزات من إحياء الأموات وإبراء الأسقام فهو دليل على الساعة أجزاها الله تعالى على يديه، وليس له من أمر الألوهية شيء (٢).

ولما رد في هذه الآية على الذين جعلوا له من عباده جزءاً، نفى في الآية التالية ألوهية الملائكة

رداً على جعلهم الملائكة عباد الرحمن إناً، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ

يَخْلُقُونَ﴾ لجعلنا من نسلكم ملائكة كما خلقنا عيسى من غير أب، أو لأبدلناكم ملائكة

في الأرض يعمرونها (٣)، "والمعنى أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة فالله تعالى

قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلكم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل

خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله

سبحانه وتعالى " (٤).

﴿وَأِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا﴾ ولا تشكوا في وقوعها فإنها كائنة لا محالة (٥)، والآية

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢١٦٤) (١٩/١١)، (٤٩٣ / ٣٦)، وابن ماجه في سننه (٤٨)

(ص ٢٢)، والترمذي في سننه في كتاب التفسير باب ومن سورة الزخرف (٣٢٥٣) (ص ٧٣٥)، وقال:

"هذا حديث حسن صحيح"، والحاكم في المستدرک وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه

الذهبي في التلخيص. المستدرک للحاكم مع التلخيص (٤٤٨/٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب (١٤١) (ص ١٦٩).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢١٥/٧).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٦١/٥).

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٦/٤).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٦/٧).

إثبات ثالث للقيامة والبعث بعد قوله ﴿ فَأَشْرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝١١ ﴾،

وقوله: ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۝١٤ ﴾ .

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝١١ ﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

﴿ يتأكد به الأمر باتباع الصراط المستقيم والتحذير من الزيغ عنه ومن صد الشياطين، بعد

قوله في الآيات السابقة: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقوله:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ .

ثم بينت الآيات حقيقة ما جاء به عيسى من البينات والهدى، والتوحيد لرب السماوات

والأرض، ودعاهم إلى طاعته فيما أمرهم به من عبادة الله وحده لا شريك له ، فأعلن كلمة

التوحيد خالصة لا لبس فيها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

وإذ أعلن عبوديته لله فكيف يكون الهاً أو ابن إله!!^(١) .

فاختلفت الفرق في عيسى ابن مريم، فمنهم من اختار الحق واتبع الصراط المستقيم وآمن به

رسولاً لله^(٢)، ومنهم من قال هو الله ومنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال هو ثالث

ثلاثة، تعالى الله عن كفرهم علواً كبيراً. ﴿ وَقَالَتِ الْتَصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة:

٣٠]، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿ لَقَدْ

^(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٤/١٩) .

^(٢) وسبل الشيطان كثيرة متفرقة لا حصر لها، أما سبيل الحق فواحد واضح لا ثاني له ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

كَفَرَالَّذِينَ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿٧٣﴾ [المائدة: ٧٣]^(١)، فويل لمن قال في عيسى بغير ما قال الله وبعث به عيسى، وويل لمن خالف فطرته وظلم نفسه فوضع الأمور في غير مواضعها وجعل العبد إلهاً والمخلوق شريكاً لخالقه وسواه برب العالمين، هل ينظر هؤلاء إلا أن تأتيهم الساعة بغتة وهم غافلون عنها منكرون لها مشتغلون بزخرف دنياهم^(٢).

^(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٦٢/٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٧/٧).

^(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٣٧/٢١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٠٧/٤).

قال الله تعالى:

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ٦٧ ﴿ يَعْبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ٦٩ ﴿ أَدْخُلُوا
 الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۗ وَفِيهَا مَا
 شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۗ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٧١ ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
 أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٢ ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ٧٣ ﴿ إِنَّ
 الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ٧٤ ﴿ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴾ ٧٥ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن
 كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ ٧٦ ﴿ وَنَادَوْا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۗ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْرُوتُونَ ﴾ ٧٧ ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ
 بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ ٧٨ ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ ٧٩ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
 سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۗ بَلَىٰ ۖ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ٨٠ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ
 ﴾ ٨١ ﴿ سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ٨٢ ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا
 حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ٨٣ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ ۗ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ۗ وَهُوَ
 الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ٨٤ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٨٦ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ٨٧ ﴿ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ
 هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٨ ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ٨٩ ﴿

لما ذكر سبحانه الساعة ومباغتها للظالمين وهم عنها غافلون، أعقب ذلك بالحديث عن أحوالها وأحداثها والعواقب فيها لأهل الخير وأهل الشر^(١)، "وبيان بعض الأهوال التي أشار إليها إجمال التهديد في قوله: " فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم " ... وقد أوتر بالذكر هنا من الأهوال ما له مزيد تناسب لحال المشركين في تألبهم على مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، فإنهم ما ألهم إلا تناصرهم وتوادهم في الكفر والتباهي بذلك بينهم في نواديهم وأسماهم"^(٢).

فقال سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ المتحابون في الدنيا على معصية الله يتبرأ يوم القيامة بعضهم من بعض إلا المتخالين على تقوى الله ورضوانه^(٣)، فالآية تأكيد للمعاني التي سبقت في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾^(٢٨)، وقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾^(٣٩)، لتختم السورة ببيان عاقبة المغترين بالزخرف ووصف الزخرف الباقي والنعيم الحقيقي تفصيلاً ومصداقاً لقوله: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤٠).

" وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم، لقد كانوا في الدنيا يجتمعون على الشر ويملي بعضهم لبعض في الضلال، فالיום يتلاومون، ويلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر، واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون من حيث كانوا أخلاء يتناجون"^(٤)، واضمحلت

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي (٢٢٥/٢٧).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٢/٢٥).

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٣٩/٢٠).

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٢٠/٥).

كل خلة دنيوية ولم تبق إلا خلة المتقين الذين وعدوا بسعادة الآخرة في قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي " (١) .

ونادى الرحمن عباده المتقين بوصف العبودية تشریفاً لهم وتكريماً: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٢) وأعطاهم الأمن في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وبشرهم ألا خوف عليكم من العقاب ولا حزن على فوات الدنيا لما سيكرمون به من دخول الجنة (٣) ، الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله واستسلموا له وانقادوا لشرعه واتبعوا صراطه المستقيم، فاستحقوا البشرى من الكريم الرحيم :

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ " تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على

وجوهكم، لقوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤] " (٤)

يطوف عليهم الولدان بالطعام والشراب في صحاف وأكواب الذهب، والصحاف آنية الطعام جمع صحفة، والأكواب آنية الشراب المستديرة القصيرة التي لا آذان لها ولا مقابض (٥) ، واستغني

بذكر الذهب في الصحاف عن إعادته في الأكواب، كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٦) (١٩٨٨/٤) .

(٢) ينظر دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٤٨٠/٢) .

(٣) ينظر جامع البيان للطبري (٦٤١/٢٠) .

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٢٦/٨) .

(٥) لسان العرب لابن منظور (٣٩٥١/٦) .

وَالذَّكِرَاتِ ﴿ [الأحزاب: ٣٥]، واستغني بذكر الآنية عن ذكر ما فيها، فإن كانت الآنية بهذا الوصف فكيف بالطعام والشراب الذي تحمله لأهل النعيم^(١).

ذلك جزاء المتقين الذين صبروا في الدنيا وصابروا ورابطوا وحبسوا أنفسهم عن ملذاتها ابتغاء وجه الله، فجزاهم بما صبروا أنهم هم الفائزون وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً، وذهباً ولؤلؤاً. وفي الصحيحين: " لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة " ^(٢).

هي في الدنيا للمغترين بيريقتها الخادع ولذتها القصيرة، لفرعون الذي احتقر موسى عليه السلام لأجلها قائلاً: ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ ﴿ ولما اقتفى أثره من سادة قريش فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾، وهي عند الله للثابتين على الصراط الصابرين عن الشهوات.

ولذلك ذكر الذهب في نعيم المتقين، ترغيباً في زخرف الجنة وتزهيداً في زخرف الدنيا الذي اغترت به قريش وافتتن به فرعون، وهذا هو مقصد سورة الزخرف .

وبعد أن وصف سبحانه حال الأتقياء ثنى بذكر حال المجرمين الأشقياء، ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿ مقيمون فيها إقامة دائمة لا يخفف عنهم عذابها ولا يسكن ساعة واحدة، فهم فيها ملبسون^(٣) آيسون من النجاة مستسلمون للعذاب^(٤).

^(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٠ / ٦٤٥)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩ / ٧٨) .

^(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٤) .

^(٣) الإبلان هو القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله تعالى، وأبلس فلان إذا سكت غمماً، والمبلس اليائس، ومنه سمي إبليس بهذا الاسم لانه لما طرد من رحمة الله أبلس يأساً. لسان العرب لابن منظور (١ / ٣٤٣) .

^(٤) ينظر : جامع البيان للطبري (٢٠ / ٦٤٨) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧ / ٢٤٠) .

ونادوا خازن النار ليشفع لهم ، ويسأل الله لهم الموت فيرتاحوا مما هم فيه من ويلات العذاب ، ولكنه قطع آمالهم ورد عليهم استغاثتهم بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴾ ، قال الزمخشري^(١): " وفيه استهزاء " ^(٢) ، فاستهزأ بهم كما استهزأوا من قبل برسول الله والمؤمنين .

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وجاءتكم الرسل بآيات بينات كل آية أكبر من أختها، ولكنكم كفرتم إيثاراً للزخرف وكرامية للحق مع أن أصله مستقر في صدوركم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

ثم يقول سبحانه: ﴿ أَمْ أَدْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾^(٧١) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ .

"الآيتان معقبتان على ما سبقهما تعقيب تنديد بالكفر وإنذار لهم، فإذا كانوا بيتوا المناوأة للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوة الحق وأحكموا تدبيرهم فإن الله قد بيت لهم أمراً وهو ذلك العذاب الشديد الذي وصفته الآيات السابقة، وإذا كانوا يظنون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم فهم مخطئون لأن له عليهم رقباء يحصون كل ما يفعلون ويسجلونه" ^(٣) .

ويتصل آخر سورة الزخرف بأولها وترد خاتمتها على ما مر فيها من الشرك ابتداء من قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾^(٤)، وتقرر ما قامت عليه وقصدت إليه من إثبات التوحيد، فيقول سبحانه :

(١) تقدمت ترجمته (ص ٤٢) .

(٢) الكشاف (٤٥٧/٥) .

(٣) التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة (٤/٥٢٨) .

(٤) ينظر: جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل الغماري (ص ٩٧) .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فقيل معناها : لو كان للرحمن ولد فرضاً لكنت أنا أول من سيعبده على أن له ولد فإنني أسبقكم إلى طاعته وأنا أولى منكم بأن أو من بذلك، فما دام لم يحصل مني إيمان بالولد فهذا يعني انتفاء الولد واستحالة كينونته ، وقيل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول من سيعبد ولده لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد تعالى الله علواً كبيراً، والنبي أعلم الناس بالله وأولى الناس بأن يعظمه كما أمر وأن يعظم ولده لو كان له ولد ، وقيل: قل ما كان للرحمن ولد وما ينبغي أن يكون له ولد وأنا أول الشاهدين على ذلك العابدين لله وحده، على أن (

إن) نافية بمعنى (ما) كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

[إبراهيم: ٤٦]، وعلى كل معنى تحمله الآية فهي تنفي الولد عن الله سبحانه وتنفي عبادته والإيمان بوجوده عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه علقه على محال فهو محال.^(١)

قال محمد عزت دروزة^(٢): "والآيات متصلة بالسياق من حيث إن الكفار المشركين وعقيدتهم موضوع الكلام فيها، وقد احتوت تسليية وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الكفار العنيد منه"^(٣).

وقد تكرر لفظ (الرحمن) في سبعة مواضع من هذه السورة الكريمة ، وهي:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ

^(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٠/٦٥٤-٦٥٦)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/٨٩)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/٢١٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٢٤١-٢٤٢).

^(٢) تقدمت ترجمته (ص ٥٥).

^(٣) التفسير الحديث (٤/٥٢٩).

كَظِيمٌ ﴿ [الزخرف: ١٧].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ

سُقُفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣].

٥- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

٦- قوله تعالى: ﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً

يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

٧- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١].

والرحمة الإلهية متجلية في السورة ابتداء بقوله سبحانه: ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا

أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾، وحيث ذكر (الرحمن) جلّ وعلا، كانت تجليات الرحمة، ورحمات الرحمن، مبسوبة لكل طالب، طالبة لكل معرض، فمن فاته حظه من رحمة الله في هذا المقام فهو الشقي المحروم من كل خير، وإن تكرر هذا الذكر للاسم الكريم (الرحمن) هو تأكيد لتلك الدعوة التي يدعو إليها الرحمن عباده، ويسيطر بها يده تبارك وتعالى إليهم بالرحمة، يلقاهاهم بها على كل طريق من طرق الغواية والضلال التي يركبونها، فهذا الذكر نداءات متتابعة، إلى موارد هذه الرحمة الواسعة، وإن موقف السورة من المشركين كان موقف موادعة وتذكير ودعوة إلى التوبة والرجوع، ومن أجل هذا كثر في السورة ذكر الرحمن الذي يذكر بالرحمة التي ينبغي أن تكون بين النبي وأهله، ولهذا دعا النبي إلى أن يصفح عنهم، وأن يلقاهاهم بالموادعة والسلام ﴿

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ وَسَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾^(١).

(١) التفسير القرآني لعبدالكريم الخطيب (١٣/١٧٧-١٧٩) بتصرف.

ثم ينزه الله تعالى نفسه المقدسة عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد والشريك ﴿سُبْحَانَ رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويهدد الخائضين بالباطل وينذرهم عاقبة
جدالهم وإنكارهم للحق المبين :

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ذرهم في خوضهم وخصومتهم
وحجاجهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، وهو يوم يصليهم الله النار يوم القيامة ، أو هو
يوم بدر الذي تبينه فاتحة سورة الدخان: ﴿يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ
﴿الدخان: ١٦﴾^(١) .

ثم نفى سبحانه ألوهية عيسى والملائكة وكل من عبد من دونه في الأرض أو في السماء ﴿وَهُوَ
الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾^(٢) هو المعبود فيهما بحق، وهو الذي عنده علم قيام
الساعة وإليه المرجع والمصير، تعالى رب السماوات والأرض ورب العرش بخلقهم العظيم وتنزه
عما نسبوه إليه من الولد وما افتروه عليه من الشركاء في ملكه، " إن هذه الأجسام لكونها
أصولاً ذات استمرار تبرأت مما يتصف به سائر الأجسام من توليد المثل فما ظنك بمبدعها
وخالقها"^(٣) .

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وتتناسق
الآية مع ما قبلها حيث ختمت الآية السابقة بذكر الساعة والرجوع فذكرت هذه الآية

^(١) ينظر جامع البيان للطبري (٦٥٩/٢٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٦٦/٥) .

^(٢) ينظر: الكشف للزخشري (٤٦٠/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٧/٢٥) .

^(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٢١٠/٤) .

اما يكون في ذلك الموقف من أمر الشفاعة^(١).

والمعنى لا يملك الشركاء المعبودون من دون الله الشفاعة عند الله إلا من شهد شهادة التوحيد كعيسى وعزير والملائكة فيشفعون بإذن الله ولا يشهدون إلا شهادة حق ، أو المعنى لا يملك الملائكة وعيسى وعزير الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وقال كلمة التوحيد فلا يشفعون للكفرة لأنهم كانوا للحق كارهين، ولا تنال المشركين شفاعة ولا تنفعهم شفاعة الشافعين^(٢).

و يختم سبحانه الاستدلال على ألوهيته والإبطال لشركهم بأقوى الأدلة وأشدّها قمعاً لمفترياتهم وهو اعتراف قلوبهم برب العالمين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

فختمت السورة بذكر اعترافهم كما افتتحت به في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿ [الزخرف: ٩] ^(٣) مقررّة الألوهية في أنصع صورة وأكد دليل، معذرة إليهم منذرة عاقبة كفرهم المبين، وإقامتهم على الحنث العظيم، وإصرارهم على ما فعلوا وهم يعلمون .

واشتكى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه عناد قومه وإصرارهم على الكفر ﴿ وَقِيلَ لَهُ

يَرْبِّ إِنَّ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) فأمره الله بالصفح عنهم والإعراض عن جدالهم، فقد

بلغ الدعوة وأقام عليهم الحجج ، وسيحل بهم انتقام الله الذي وعدهم به في قوله: ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ

^(١) ينظر في هذا المعنى: دراسة في أسرار البيان لأبي موسى (٥٢٨/٢) .

^(٢) ينظر: الكشف للزخشري (٤٦٠/٥)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٣/١٩)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٩/٨، ٣٠) .

^(٣) ينظر مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي (ص ٩٨) .

^(٤) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٦٤/٢٠) .

مُنْتَقِمُونَ ﴿١﴾ وسوف يعلمون عاقبة كفرهم.

وحذف مفعول يعلمون لتذهب النفس فيه كل مذهب، وليكون أشد في التخويف و أبلغ في الوعيد، " وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين " (١).

والصفح المذكور في قوله أول السورة ﴿٢﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا

مُتَّعِفِينَ ﴿٣﴾ منكر وقوعه وهو الإمساك عن إرسال الرسل ورفع التذكير بالقرآن، أما الصفح المأمور به هنا فهو ترك الجدل بعد البيان والإنذار، والإعراض عنهم بعد أن تبين لهم الحق وأنزل إليهم الذكر عربياً مبيناً (٢).

وختمت سورة الزخرف بهذه الخاتمة القوية التي هي أنسب ما يمكن أن يختم به عرضها لمواقف حجاج المشركين (٣)، فأمرت بالإعراض عن المجادلين في الحق الخائضين بالباطل وإرجاء أمرهم إلى خالقهم بعد أن بينت لهم الحقائق ووضحت الحجج وأعدرت وأنذرت وأدى الرسول مهمته وبلغ رسالة ربه .

والله تعالى أعلم

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣١٩٦/٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٧٤/٢٥) .

(٣) ينظر: التفسير الحديث ل محمد عزت دروزة (٥٣١/٤).

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، له الحمد كثيراً كما ينعم كثيراً، وله الحمد أن يسر كتابة هذا البحث، وأعان على إتمامه، وأبغني به وجهه الكريم، وحسن ثواب الآخرة .

ومن أهم النتائج التي أسفر عنها هذا البحث :

* الوقوف على التناسق والانسجام والإعجاز في آيات سورة الزخرف، وأن القرآن معجز في كل حرف منه وإن خفيت جوانب الإعجاز، وإعجازه ليس في معانيه وألفاظه فقط بل في تناسق هذه المعاني والألفاظ والآيات والسور وانسجامها والتحامها وموافقة بعضها بعضاً على نحو يعجز البشر عن مضاهاته، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

* أن السورة القرآنية لها وحدة و رابط يجمع آياتها وتلتقي فيه موضوعاتها، وتزداد هذه الوحدة وضوحاً بزيادة التأمل وإمعان النظر وإطالة التفكير، وقد توصلت الدراسة لسورة الزخرف إلى أن السورة تقوم على ثلاثة مقاصد رئيسية تفرعت عنها موضوعاتها، وهذه المقاصد هي :

١/ التوحيد ووحدة الرسالات: حيث ابتدأت السورة بذكر وحدة الرسل والرسالات، وإثبات استقرار التوحيد في خبايا النفوس وأصل الفطرة، والاستدلال على وحدانيته بنعمه ومخلوقاته، ثم الرد على من جعل له من عباده شريكاً، وضرب الأمثلة على التوحيد الخالص بقصص أولي العزم من الرسل، ثم تنزيه الرحمن عن اتخاذ الولد، ثم اختتام السورة بما بدأت به وإعادة تقرير

الربوبية المستلزمة للألوهية ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .

٢/ تشريف القرآن الكريم ونصره وإعلاء شأنه: فقد افتتحت السورة بالقسم به، وذكرت فضله وخصائصه، ثم تتواصل الآيات في تشريفه والذب عنه ورد شبهات المشركين فيه، ثم بينت السورة عقوبة العاشين عن هذا الذكر الشريف وأمرت بالاستمساك به لأنه صراط الله المستقيم، وأكدت أنه ذكر ورفعة لأتباعه لأنه عند الله علي حكيم .

٣/ نبذ زخرف الحياة الدنيا: حيث بينت السورة كيف كان الزخرف مشغلاً عن ذكر الله، وأن الله سبحانه هو مقسم الأرزاق والمعاش بين خلقه وهو الذي فاوت بينهم في الدرجات الدنيوية وأن ما عنده خير مما يجمعون، وبينت هوان أعظم زخرف الدنيا على الله و انعدام وزنه في مقابل الآخرة المدخرة للمتقين، وأنه يردي باللاهئين خلفه ويسبب العداوة يوم القيامة بين الأخلاء فيه، والسعادة الدائمة للصابرين عنه المؤثرين لزخرف الجنة .

* أظهر هذا البحث أن تكرار القصص القرآني له أسراره وإعجازه، وأن سوق القصص متناسب مع أغراض السور، فمن ذلك قصة موسى عليه السلام التي سيقت في سورة الزخرف لأنها تخدم أغراضها من تبيين وحدة الرسالة والرسول، وحقارة الزخرف، ووضع القيم الحقيقية للشرف، ووعيد المترفين والمعترضين على حكم الله، وتسليية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتثبيتهم على الصراط، ومثلاً للمشركين على انتقام الله وتحذيراً من عاقبة الأولين .

* أظهر البحث الحكمة والأسرار في تسمية السورة بالزخرف، فالاسم معبر عما تضمنته السورة ومتناسب مع موضوعاتها التي تصب في معنى هذا الاسم، وقصصها التي سيقت لغرض التحذير من الزخرف .

* أظهر البحث اتساق سورة الزخرف في عقد الحواميم فهي مشدودة برباط وثيق إلى سورة الشورى قبلها وسورة الدخان بعدها .

* أن دراسة جوانب التناسق والترابط بين موضوعات السورة له أثره في تفسيرها وفهم معانيها وإدراك روعة سبكها .

* أن دراسة سورة من كتاب الله تعالى تسمو بالفكر والقلب والإيمان وتبني في الباحث التحري والدقة واستشعار عظم الأمانة خاصة وهو يتعامل مع كلام الله تعالى لا مع كتاب من كتب المخلوقين .

* الوقوف على المعاني العظيمة التي جاءت في سورة الزخرف، وهي من السور المكية التي عاجلت قضايا هامة ووضعت أسساً ثابتة، ومن ذلك :

- أنها قررت الألوهية لله رب العالمين، واتفق الرسالات على ذلك، ونزهته سبحانه عن الولد والشريك، وأثبتت عبودية عيسى عليه السلام والملائكة، واعتراف العالمين له بالخلق عقلاً وفطرة، له الخلق والرزق وله الأمر كله، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً.

- أبطلت التقليد وذمت المقلدين ودعت إلى العمل بالدليل .

- قررت البعث والحساب والجزاء والجنة والنار .

- أمرت بالتمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بهما وأكدت أنهما شرف المسلم الذي لا ينال إلا بهما .

- صححت الانحرافات العقدية الجاهلية كتأنيث الملائكة والحكم في الأنعام بغير ما شرع الله.

- حذرت من إغواء شياطين الإنس والجن، ووصفت عداوة أخلاء الكفر في قوله : ﴿ حَتَّىٰ

إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ ﴾ وقوله : ﴿ الْأَخْلَاءُ

يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

- بينت حقيقة التفاوت بين الناس في المراتب، وأنه ابتلاء وتمحيص، وليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، أما التفاوت في درجات الآخرة فهو قائم على التقوى والإيمان ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .
- نبذت حب الدنيا وبينت انعدام وزنها في الآخرة، وزوال كل ما بني على أسس دنيوية، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

أسأل الله الكريم أن يجعلنا من أهل الفوز في الآخرة، وأن يجعل عملي صالحاً ولوجهه خالصاً ولا يجعل لأحد فيه شيئاً، وأن يبارك فيه، وينفع به، ويغفر زلاته ويجزل ثواب حسناته، ثم أقول لقارئ بحثي ما قاله الإمام الشاطبي رحمه الله^(١) :

وظن به خيراً وسامح نسيجه	بالإغضاء والحسنى وإن كان هلها
وإن كان خرق فادركه بفضلة	من الحلم وليصلحه من جاد مقولا
وسلم لإحدى الحسينين إصابة	والأخرى اجتهاد رام صوباً فأمحلا ^(٢)

ما كان في هذا العمل من خير وصواب فمن الله وما كان فيه من نقص وتقصير فمن نفسي والشيطان، وما توفيقى إلا بالله .

^(١) أبو محمد القاسم بن فيره الأندلسي، كان يتوقد ذكاء، وكان يتجنب فضول الكلام، له الباع الأطول في فن القراءات، فقد ألف متن الشاطبية في القراءات السبع (حرز الأمانى)، توفي ٥٩٠ هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٥٦٦) (٣٠٦٩/٢) ، الأعلام للزركلي (١٨٠/٥) .

^(٢) حرز الأمانى ووجه التهاني (الشاطبية) (ص ٧٠) .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية .

فهرس الأحاديث والآثار .

فهرس الأعلام .

فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات .

فهرس المراجع والمصادر .

فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

[رقم الصفحة]

- ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]..... [٨]
- ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠] [١٠٩]
- ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]..... [١٠٩]
- ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة: ١٣٢]..... [١٠٩ ، ١٦٩]
- ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]..... [٢٠٣]
- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]..... [١٩٠]
- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]..... [١٩١]
- ﴿ يُوحىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]..... [٢٨]
- ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦]..... [٩٢]
- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]..... [١٩٠]
- ﴿ قُلْ يَا آلِهَةَ وَمَا يَنْبَغِيهِمْ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ نَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥]..... [٩٤]
- ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]..... [٩٤]

- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨] [١٤٨]
- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ [يونس : ٢٤] [٢٨]
- ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٩٤] [٤٣]
- ﴿ كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ [هود : ١] [٢٣]
- ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦]..... [١٧٢]
- ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [يوسف: ٣٧] [١١٠]
- ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨] [١١٠]
- ﴿ وَسَأَلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢] [٤٣]
- ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] [١٢٠]
- ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] [١٩٧]
- ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢] [١٠٠]
- ﴿ قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ [الإسراء: ٨٨] [٤]
- ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ ﴾ [الإسراء : ٩٣] [٢٨]
- ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١] [١٤٩]

- ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢] [١٤٩]
- ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] [٩٢]
- ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] [١٣٢، ٦٤]
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. [١٣٢، ٦٤]
- ﴿ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] [١٢٥]
- ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠] [١٢٢]
- ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ [النمل: ٨١] [١٢٢]
- ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥] [١٤٠]
- ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥] [١٦٤]
- ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] [١٩٤]
- ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] [٥]
- ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣] [١٤٨]
- ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] [١٢٧]
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] [٧٤]

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١] [٣١]
- ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] [٣١]
- ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤] [٩١]
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧] [٥١]
- ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧] [٥٢]
- ﴿ لِلَّهِ مَلَكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ ﴾ [الشورى: ٤٩] [٥٢، ٥١]
- ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٥٠] [٥٢]
- : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] [٥٢، ٤٩، ١٣٤]
- ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ [الشورى: ٥٣] [٥٣، ٤٩، ٥١، ١٣٤]
- ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] [٥٣، ٥٤]
- ﴿ يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦] [٥٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٧٨، ١٩٩]
- ﴿ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْحَمُونِ ﴾ [الدخان: ٢٠] [٥٧]
- ﴿ وَإِن لَّمْ نُؤْمِنُوا لِي فَاغْرَبْنَا ۗ ﴾ [الدخان: ٢١] [٥٧]
- ﴿ فَدَعَارَبَهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢] [٥٧]

- ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سوء الجحيم ﴾ [الدخان: ٤٧] [٥٦]
- ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ [الدخان: ٤٨] [٥٦]
- ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان: ٤٩] [٥٦]
- ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴿٥١﴾ ﴾ [الدخان: ٥١] [٥٥]
- ﴿ في جنات وعيون ﴿٥٢﴾ ﴾ [الدخان: ٥٢] [٥٥]
- ﴿ فأنما يسرته بلسانك لعالمهم يتذكرون ﴾ [الدخان: ٥٨] [٥٧]
- ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ [الدخان: ٥٩] [٥٥]
- وقال: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [الأحقاف: ٦] [١٤٩]
- ﴿ قل أرى يتم إن كان من عند الله وكفرتم به ﴾ [الأحقاف: ١٠] [٤٦]
- ﴿ أذهبتم طيبنتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ [الأحقاف: ٢٠] [١٧٣]
- ﴿ ومن كل شيء خلفنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [الذاريات: ٤٩] [١٥٩]
- ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمن الحقنا بهم ذريتهم ﴾ [الطور: ٢١] [١٤١]
- ﴿ إنه لقرءان كريم ﴿٧٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٧] [٣١]
- ﴿ في كتب مكنون ﴿٧٨﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٨] [٣١]

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] [٣١]

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] [٥٩]

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين : ٢٤] [١٩٤]

.....

فهرس الأحاديث والآثار

[رقم الصفحة]

((إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه...)) [٣١]

((إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم...)) [١٧٢]

((إن الله يضع بهذا الكتاب...)) [٣١]

((إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي...)) [١٩٤]

((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره...)) [٣٤]

((إن لله أهلين من الناس...)) [٣٢]

((إنكم تلقون عدوكم غداً...)) [٣٣]

((أول ما أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك...)) [٣٩]

((أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب...)) [١٧٢]

((بيننا ثلاثة بين الكعبة وأستارها...)) [٦٥]

((الحواميم ديباج القرآن...)) [٣٣]

((قال الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد...)) [٦٣]

((كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة...)) [٢٧، ٣٨]

[١٧٤].....((لا تلبسوا الحرير ولا الديباج...))

[٣٢]((لا حسد إلا على اثنتين...))

[٧٤]((لما حضرت أبا طالب الوفاة...))

[١٧٤].....((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة...))

[١٨٨].....((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل...))

[١٧٤].....((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها...))

[١٥٩]((والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة...))

[٦٤]((يامعشر قريش إنه ليس أحد...))

[٢٦]((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله...))

.....

فهرس الأعلام

[رقم الصفحة]

إبراهيم بن عمر الجعبري.....[٣٩]

إبراهيم بن موسى الشاطبي.....[٦٧]

بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي.....[٦]

برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي.....[٢٢]

جابر بن زيد الأزدي.....[٣٩]

سيد قطب.....[١١٤]

عبد الحق بن أبي بكر بن عطية.....[٤٥]

عبد الحميد الفراهي.....[٢٠]

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.....[٢٥]

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.....[٤٧]

عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي.....[٢٨]

عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي.....[٣٦]

عبد الكريم محمود الخطيب.....[١٠٣]

عبد الله بن الزبير القرشي.....[٦٤]

- [٤٦] عبد الله بن سلام بن الحارث
- [١٨٢]..... عبد الله بن عمر البيضاوي
- [٦٣] عروة بن مسعود الثقفي
- [٣٠] علي بن أحمد المهندي
- [٦٢] علي بن أحمد الواحدي
- [٢٠٦]..... القاسم بن فيرّه الشاطبي
- [٤٧] قتادة بن دعامة السدوسي
- [٤٠] محمد بن أحمد القرطبي
- [٢٧] محمد بن إسماعيل البخاري
- [٢٥] محمد بن جرير الطبري
- [٢٧] محمد بن سورة الترمذي
- [٢٦] محمد الطاهر بن عاشور
- [٢٠] محمد بن عبد العظيم الزرقاني
- [٢١]..... محمد بن عبد الله دراز
- [٥٥] محمد عزت دروزة
- [٥] محمد بن عمر فخر الدين الرازي

[٦٥] محمد بن كعب القرظي

[٨٢] محمد بن محمد أبو موسى

[٥٣] محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي

[٤٢] محمود بن عمر الزمخشري

[٢٦] مسلم بن الحجاج القشيري

[٦٣] الوليد بن المغيرة المخزومي

.....

فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات

[رقم الصفحة]

أجملوا.....[١٧٢]

أسورة.....[١٨٩]

أكواب.....[١٩٧]

أمة.....[١٦٥]

تاريخ نزول السور.....[٣٨]

التناسق الموضوعي في السور القرآنية.....[١٩]

حصب.....[٦٤]

الديج.....[١٧٤]

الزخرف.....[٢٨]

سبب النزول.....[٦٢]

السرف.....[٨١]

صحاف.....[١٩٧]

العدد البصري.....[٣٦]

العدد الحجازي.....[٣٦]

العدد الشامي [٣٧]

العدد الكوفي [٣٦]

العشو..... [١٧٥]

علم عد الآي [٣٥]

القيض [١١٩]

مبلسون [١٩٥]

المكي والمدني [٤٥]

نسق [١٩]

وشج [٢٢]

وضع [١٩]

.....

فهرس المصادر والمراجع

- آل حم دراسة في أسرار البيان، محمد محمد أبو موسى، دار الكتب المصرية، القاهرة .
- الأساس في التفسير ، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ت ٤٦٨هـ، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- أسرار البلاغة، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الجكني الشنقيطي، إشراف بكر عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد .
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م .
- أنوار التنزيل للبيضاوي بحاشية شيخ زاده، ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ت ٦٨٥هـ، حاشية محمد بن مصلح شيخ زاده، المطبعة العثمانية، اسطنبول، تركيا، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر (منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات)، أحمد بن محمد البناء. ت ١١١٧هـ، تحقيق د شعبان إسماعيل، عالم الكتب -

بيروت ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

• **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

• **إتمام الأعلام**، الدكتور نزار أباطه، محمد رياض المالح، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.

• **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

• **الإصابة في تمييز الصحابة**، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، كلكتا، ١٨٥٣ م.

• **إعجاز القرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الأولى .

• **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام**، المسمى " نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسيني ت ١٣٤١ هـ، دار ابن حزم-بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م.

• **الإيضاح في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني ت ٧٣٩ هـ، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

• **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين ابن الأثير علي بن محمد الجزري ت ٦٣٠ هـ، دار الفكر- بيروت، ١٤٠٩ هـ.

- أسلوب القسم في القرآن الكريم (دراسة بلاغية)، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد، إعداد الطالب: علي محمد عبد المحسن الحارثي، إشراف د فتحي عبد القادر فريد، جامعة أم القرى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف ت ٧٤٥هـ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- البرهان في ترتيب سور القرآن، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ، تحقيق محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت ٨١٧، تحقيق الأستاذ عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية - بيروت .
- البعث والنشور، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨ هـ ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ، الطبعة الأولى ٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤ هـ، تحقيق غانم قدوري الحمد، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- بيان المعاني، عبد القادر ملاحويش آل غازي، مطبعة الترقى، دمشق.
- تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، علي المهامبي الهندي الحنفي ت ١٣٧٤ هـ، طبع بمطبعة بولاق بمصر.

- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد الذهبي ت ٧٤٨هـ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .
- التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة ١٣٨٣هـ .
- تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١هـ، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب المتوفى بعد ١٣٩٠هـ، دار الفكر - القاهرة .
- تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف د مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، بحث للدكتور محمد عمر سالم بازمول .
- تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، تحقيق إبراهيم الزبيق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ت ٦٧١هـ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الجامع لشعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن، أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري، مكتبة القاهرة .
- الحاوي في التفسير، عبد الرحمن النقاش.
- حرز الأمان ووجه التهاني ، القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي ت ٥٩٠هـ، تحقيق محمد تميم الزعبي، دار ابن الجزري، المدينة المنورة، الطبعة السادسة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، دار الجليل، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

- الدر المنتور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨ هـ، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ديوان الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي ت ١٢٧٠ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني ت ١٤٢٠ هـ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي النسائي ت ٣٠٣ هـ، بأحكام العلامة ناصر الدين الألباني، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.
- سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٣ هـ، بأحكام العلامة محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق أبو عبيدة مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ ، بأحكام العلامة محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت ٢٧٩هـ ، بأحكام العلامة محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق : أبو عبيدة مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.
- سنن الدارمي ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ت ٢٥٥هـ، تحقيق حسين الدارمي، دار المغني للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان ٢٠٠٤م .
- السيرة النبوية، جمال الدين عبد الملك ابن هشام ت ٢١٣هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز الحنفي الدمشقي ت ٧٩٢هـ، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣هـ
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ، دار ابن كثير، دمشق- بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
- صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني ت ١٤٢٠هـ، المكتبة الإسلامية، عمان - الأردن، الطبعة الأولى.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ت ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- الصحيح المسند من أسباب النزول، عبد الرحمن مقبل هادي الوادعي، مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- الصحيح من أسباب النزول، عصام عبد المحسن الحميدان، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، جامعة الملك عبد العزيز، دار الصابوني، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الدمشقي ت ٨٥١هـ، تحقيق عبد العليم خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- طبقات المفسرين ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- عناية القاضي وكفاية الراضي (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي) ، شهاب الدين الخفاجي، دار صادر، بيروت .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٠٥ هـ ، دار المعرفة- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- الفرائد الحسان في عد آي القرآن، عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي ت ١٤٠٣ هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٤ هـ،
- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شبرويه بن شهدار الديلمي ت ٥٠٩ هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- فضائل القرآن، محمد بن أيوب بن الضريس ت ٢٩٤ هـ، تحقيق عروة بدير، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- فضائل القرآن ومعامله وآدابه، أبو عبيد القاسم ابن سلام، تحقيق أحمد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ، تحقيق حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي ت ٨١٧ هـ ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، الطبعة الثامنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي بن حسين الحرابي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز، أبو عيد المخللاتي رضوان بن محمد ت ١٣١١ هـ، تحقيق عبد الرزاق بن علي موسى، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني ت ٣٦٥ هـ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، عبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ هـ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد الثعلبي ت ٤٢٧ هـ، تحقيق أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .
- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ - ١٩٩٨ م.

- **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين أبو عبد الرحمن السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- **لسان العرب**، جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، سيد رمضان أحمد، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠١ هـ.
- **المجروحين من المحدثين والضعفاء المتروكين**، لمحمد بن حبان ت ٣٥٤ هـ .
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، نو الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧ هـ، بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت .
- **محاضرات في التفسير الموضوعي**، د: عباس عوض الله عباس، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت ٥٤٦ هـ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، محمد محمد أبو شهبه، دار اللواء للنشر والتوزيع-الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.
- **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ، تحقيق محمد يوسف الشرجبي، مجلة الأحمدية، العدد الرابع، ١٤٢٠ هـ.
- **المستدرک علی الصحیحین**، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، تحقيق د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت- لبنان .

- مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١ هـ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- مسند الشهاب، أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ت ٨٨٥ هـ، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- المصنف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥ هـ، تحقيق محمد عوامة، شركة دار القبلة، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- معارج التفكير ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦ هـ، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان أحمد الطبراني ت ٣٦٠ هـ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية .
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الرابعة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد الرازي ت ٦٠٤ هـ، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ، تحقيق عدنان زرزور، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- المكّي والمدني من السور والآيات، د. محمد بن عبد العزيز الفالح، دار التدمرية - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .
- المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، دراسة تطبيقية لسورة الشورى والزخرف والدخان والجنائية والأحقاف، إعداد الطالب: محمد كمال سالم ديب، إشراف الأستاذ الدكتور: زكريا إبراهيم زميلي، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق فواز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي إبراهيم بن موسى، دار الفكر العربي، بشرح الشيخ عبدالله دراز، تحقيق محمد عبدالله دراز.
- الموسوعة القرآنية المتخصصة ، إشراف وتقديم أ.د. محمود حمدي زقزوق .
- النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

• نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ت ٥٩٧هـ، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

• النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ، تحقيق علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت .

• نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي .

• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

• نفائس البيان شرح الفرائد الحسان، عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي ت ١٤٠٣هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ .

• النكت والعيون، علي بن محمد بن حبيب الماوردي ت ٤٥٠هـ، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

• وجوه البيان في أمثال القرآن، رسالة دكتوراه في الأدب، إعداد الطالبة : سميرة عدلي محمد رزق، إشراف د. حسن محمد باجودة، جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

المواقع الإلكترونية :

• موقع جامعة أم القرى: <http://uqu.edu.sa/page/ar/184454>

<https://uqu.edu.sa/page/ar/93190571>

.....

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

المقدمة	٤
أهمية الموضوع	٥
أسباب اختيار الموضوع	٥
أهداف البحث	٦
الدراسات السابقة	٦
خطة البحث	١١
منهج البحث	١٣
شكر وتقدير	١٥

الباب الأول : التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية

التمهيد: (التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة)	١٩
--	----

الفصل الاول: اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها

المبحث الأول: ماورد لسورة الزخرف من أسماء	٢٥
المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها	٣١
المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك	٣٥
المبحث الرابع: تاريخ نزول سورة الزخرف	٣٨

الفصل الثاني: مكى السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به

المبحث الأول: المكى والمدني في سورة الزخرف ٤٥

المبحث الثاني: مناسبة سورة الزخرف لما قبلها وما بعدها ٤٨

المبحث الثالث: وجه اختصاص سورة الزخرف بما اختصت به من موضوعات ٥٨

الفصل الثالث: أسباب نزول السورة ومقاصدها وأهدافها

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في سورة الزخرف ٦٢

المبحث الثاني: مقاصد سورة الزخرف وأهدافها ٦٦

الباب الثاني : التناسق الموضوعي : دراسة تطبيقية

الفصل الأول: مناسبات السورة الكريمة

المبحث الأول: مناسبة اسم سورة الزخرف لموضوعاتها ٧٣

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة سورة الزخرف لموضوعاتها ٧٨

المبحث الثالث: مناسبة فاتحة سورة الزخرف لخاتمتها ٨٤

الفصل الثاني: موضوعات سورة الزخرف وتناسقها

تمهيد ٨٧

المبحث الأول: افتتاح السورة بتشريف القرآن الكريم. من الآية (١) إلى الآية (١٤)

المطلب الأول: الثناء على الكتاب المبين ٩٠

المطلب الثاني: بسط أدلة الربوبية لتقرير الوحدانية ٩٤

المبحث الثاني: جدال المشركين ورد شبهاتهم. من الآية (١٥) إلى الآية (٣٥)

المطلب الأول : فرية نسبة الولد إلى الله تعالى..... ١٠٠

المطلب الثاني : فرية تأنيث الملائكة..... ١٠٢

المطلب الثالث: تمسك المشركين بضلال آبائهم وعاقبة المقلدين..... ١٠٥

المطلب الرابع : براءة إبراهيم عليه السلام من الشرك..... ١٠٧

المطلب الخامس : شبهة المشركين في تنزيل القرآن الكريم..... ١١٢

المطلب السادس : حقارة الزخرف الديوي ١١٤

المبحث الثالث:عاقبة العاشين عن ذكر الرحمن.من الآية (٣٦) إلى الآية (٤٥)

المطلب الأول: عاقبة المعرض عن ذكر الله..... ١١٧

المطلب الثاني: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتته على الصراط المستقيم ١٢١

المبحث الرابع: قصة موسى عليه السلام. من الآية (٤٦) إلى الآية (٥٦)

المطلب الأول: كفر آل فرعون بالآيات البينات ١٢٤

المطلب الثاني: إهلاك فرعون وملكه مثلاً للآخرين ١٢٦

المبحث الخامس: قصة عيسى عليه السلام. من الآية (٥٧) إلى الآية (٦٦)

المطلب الأول: تقرير عبودية عيسى والملائكة عليهم السلام ١٣١

المطلب الثاني: إعلان التوحيد على لسان عيسى عليه السلام ١٣٥

المبحث السادس: أحوال الآخرة. من الآية (٦٧) إلى الآية (٨٠)

المطلب الأول: نعيم المتقين في الجنات ١٣٨

المطلب الثاني: عذاب المجرمين في الدركات..... ١٤١

المبحث السابع : ختام السورة بتقرير التوحيد. من الآية (٨١) إلى الآية (٨٩)

المطلب الأول: تنزيه الله تعالى عن الولد ١٤٥

المطلب الثاني : الأمر بالصفح والموادعة ١٤٨

الفصل الثالث: تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي..... ١٥٢

الخاتمة ٢٠٣

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية..... ٢٠٨

فهرس الأحاديث والآثار..... ٢١٤

فهرس الأعلام..... ٢١٦

فهرس الألفاظ الغريبة والمصطلحات..... ٢١٩

فهرس المراجع والمصادر..... ٢٢١

فهرس الموضوعات..... ٢٣٥

